المثقفون لا يتزوجون

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: المثقفون لا يتزوجون
تـأليـــــــف: أسماء محمد رضا
القـطـــــع: 21X14
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنـة النشـر: 2024
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 32676 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 589 - 3

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-589-3
9 789778 445893

المثقفون لا يتزوجون

رواية

أسماء محمد رضا

كشف الأسماء

الثامنة مساءً والمقهى تكتظ بروادها، وصوت الزحام يعلو على كل ما سواه.. جلس بمفرده يتابع القاصي والداني، يتفحص المارة والجالسين، القاطنين والعابرين، ويمعن النظر في الأطفال الذين يلعبون أمام المقهى، يستمع إليهم، يراقب تصرفاتهم وسلوكياتهم، ثم تنتقل عيناه إلى كل مراهق في مقتبل عمره جالساً كان أم مارّاً، يتفحصه بعناية، يتبين هيأته، يصوِّر ملابسه بعينيه. ينتصت بأذنٍ مصغيةٍ مجاهداً ليتبين حديثهم في ظل الصخب الذي يعمُّ أرجاء المقهى، لكن هذا الصخب لم يمنع صوت صديقه أن يصل إليه وهو يقول بصوت مرتفع:

- يوسف.. فيم أنت شاردٌ؟! التفت ناحية الصوت وقال كالمستيقظ من غفوة: يحيى!

- يحيى! الآن فقط شعرت بوجودي!! إنها المرة الثالثة التي أناديك فيها!

- سامحني يا صديقي.. بالتأكيد لم أسمعك فالمقهى مزدحم جداً اليوم.

- بل أنت الذي كنت شارداً

هز يوسف رأسه وهو يقول:

- لقد كنتُ شارداً حقاً

- وفيم كل هذا الشرود؟!

- هذا أمرٌ شرحه يطول

- هل أنت مرتبطٌ بشيء الآن؟

- كلا

- ولا أنا، فما المانع أن تخبرني ما يشغلك

- هنا! وسط هذا الضجيج!! لا.. لن نستطيع

- يبدو أن الأمر ذو أهمية بالغة، إذن نذهب إلى مكان آخر
- إلى أين؟
- إلى بيتي، فزوجتي قد ذهبت بالأولاد إلى جدتهم، والبيت خالٍ تماما
- حسناً.. هيا بنا

وعندما وصلا إلى المنزل قال يحيى ضائق الصدر:

- مالك تماطلني طوال الطريق ولم تجب على سؤالي! ما هذا الأمر الذي يشغلك؟!

فأجاب يوسف في تردد:

- إني أخشى ألا تقدِّر الأمر تقديري له، فقد تسخر مني، وربما تتهمني بالجنون

قال بسخرية:

- آه يبدو أن في الأمر شطحة من شطحاتك المعهودة

قال يوسف رافعا ذراعيه:

- قد يكون كذلك.
- كفاك تشويقاً، أفصح عما تفكر فيه، ولا تخشَ مني، فقد اعتدت على جنونك (قالها يحيى مازحاً)
- لقد كنت أفكر في حال الناس في مجتمعنا (قالها بلهجة مترددة وصوتٍ واثق)
- ماذا تقصد؟
- قل لي يا يحيى، هل سبق لك أن تتبعت أحوال الناس وتصرفاتهم في الشوارع.. في العمل أو في أي مكان؟ هل رأيت أطفالا وهم خارجين من إحدى المدارس الحكومية، هل قرأت تعليقات الشباب وغيرهم على وسائل التواصل؟
- طبعا.. كثيرا جدا

- قل لي ماذا وجدت من طباعهم وصفاتهم، وأخلاقهم؟ أو بمعنى أدق السلوكيات السائدة التي لاحظتها

وضع يده على جبينه وبدأ يتذكر ثم قال بشكل متقطع:

- وجدت فوضى، تلوثا، ضوضاءً، زحاما؛ سمعت شتائم لا أدري كيف تعلمها الأطفال ومتى! رأيت أطفالا تدخن – أتصدق هذا – لقد راعني أن رأيت طفلا يدخن! توقف برهة ثم استأنف:

- أما عن وسائل التواصل فالموضوع أكبر وأسوء، فكل شيء هناك مباح، العبارات المشينة، والكلمات المخجلة، والتنمرعلى خلق الله، وتتبع أحوال الناس والتدخل في شؤونهم، والشماتة حتى في المرض والموت!

- فماذا عن وعيهم وثقافتهم؟

- أبعد كل ما سمعت تسأل عن الوعي والثقافة!!

- لقد أصبت عين الهدف، فهذا ما يشغلني كثيرا، إن المجتمع أصبح مخيفا

- مع الأسف، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل!

- إذا قال كل إنسان مثل قولك لن يتغير شيئا

- معك حق، ولكن قل لي أنت ما الذي يجب علينا فعله؟

- نعرف السبب ونعالجه

- أي سبب؟

- السبب في انحدار أخلاق الناس

- وما هو السبب؟

- الأسرة، إن الشاب الصالح يكون صالحاً إذا كان في المبتدأ طفلاً صالحاً، ويكون الطفل صالحاً إذا كانت أسرته صالحة؛ وهذه هي مشكلتنا بعينها، إن الأسر مفككة، وبقولي هذا أقصد أسرًا قائمة لا أسر

انفصل فيها الأب عن الأم؛ فهؤلاء قصتهم أطول ومشكلاتهم أكبر؛ لقد أصبح كل أبٍ وأمٍ لا يتكبدون مشقة التربية فأصبحنا نرى تلك الظاهرة المنتشرة في المجتمع من انعدام الأدب، وتدني الأخلاق، وفي كثير من الأحيان يكبر الأطفال ولا يجدون لهم قدوة داخل أسرهم، وإذا وجدوها لا يجدونها إلا في صيغة أمر أونهي تنفرهم أكثر مما تستقطبهم.

استدرك يوسف وقد تغير وجهه بعض الشيء:

- أتعرف يا يحيى، إني أعرف الكثير ممن يتحلون بمكارم الأخلاق، وهم على مرتبة عالية من العلم والثقافة لكنهم لم ينشؤوا نشأة سوية ولم يُربوا تربية سليمة؟

- كيف هذا؟

- إن أهلهم اهتموا بتربيتهم تربية علمية أخلاقية، ولم يهتموا بتربيتهم تربية نفسية سوية، فتجدهم وقد تكونت بداخلهم مجموعة من العقد النفسية - الناتجة عن التربية الخاطئة – التي تنغص عليهم حياتهم وحياة المحيطين بهم أيضا، والمشكلة أن كثير من الناس يتزوجون كل يوم، وينجبون أطفالا دون لحظة تفكير في تربيتهم، في حين أن هناك فئة كبيرة من المثقفين في المجتمع لا يتزوجون.

وأردف قائلاً:

- كبار الأسماء في البلد بين كاتبٍ وصحفي وأديب وطبيب ومهندس من الرجال والنساء مَن هم على درجة كبيرة من العلم والثقافة والأخلاق الحميدة -مَن هم أقدر الناس في هذا المجتمع على تربية جيل صالح سوي- مضربون عن الزواج

- تُرى زواج هؤلاء هو الحل؟

- بالطبع.. ليس حلا كلياً لكنه جزء كبير من الحل، فعندما يتزوج أولئك المثقفون وينجبون أطفالا صالحين أسوياء، قد يعادل ذلك كفتي الميزان بدلا من رجحانها للطرف الآخر
- لكن لماذا يضرب هؤلاء المثقفون عن الزواج؟!
- هذا ما يجب أن أعرفه
- وكيف لك أن تعرف؟!
- لقد أعددت قائمة بأسماء بعضهم، وسأذهب إليهم واحداً تلو الآخر لأتبين منهم الأسباب

قال يحيى مبتسماً:

- آه.. أنت إذن تمزح وأنا الذي اعتقدت في أول الأمر أنك جادٌّ
- من قال إني أمزح؟!

أجاب يحيى:

- قولك هو الذي قال
- ولكني لا أمزح، بل سأنفذ بالفعل
- تنفذ ماذا؟! هل ستذهب إلى كبار الكتاب والأدباء والمثقفين لتسألهم عن سبب إضرابهم عن الزواج؟! (قالها يحيى في استنكار)
- كلا بالطبع
- ولكن هذا ما قلته للتو
- نعم قلت هذا ولكن ليس بتلك الصورة التي تلوح في رأسك، لقد تدبرت الأمر جيدا، سأذهب إليهم عن طريق عملي
- عملك؟
- نعم.. أنسيت أني أعمل محررا في جريدة؟ سوف أذهب إليهم بصفتي صحفي يريد أن يجري حوارا وأضع هذا السؤال بين العديد من الأسئلة

قال يحيى ساخراً:

- لقد اتضح لي الآن أن الأمر في غاية البساطة
- لا أحب أن تسخر مني هكذا
- ليست سخرية ولكن نفترض أنك علمت الإجابة على سؤالك العجيب هذا.. ماذا ستستفيد من ذلك العلم؟!
- ربما حاولتُ إقناع أحدٍ منهم أن يقلع عن إضرابه (قال يوسف في بعضٍ من الغرور)

ضحك يحيى ضحكاً هيستيرياً وقال:

- أنت!! أنت تقنع مَن بالإقلاع عن ماذا؟! (يتزايد ضحكه)

قال يوسف وقد ظهرت آثار الغضب على وجهه:

- كم أنت سخيف! ما الذي يضحكك كل هذا الضحك؟!
- ألا تعرف ماذا يضحكني! يبدو أنك بدأت تفقد بعض صوابك يا صديقي، أتعرف أولئك المثقفين الذين تتحدث عنهم كم لديهم من الأهل والأصدقاء وذوي القربى الذين من المؤكد أنهم طالما ألحوا عليهم -وقد لا يزالون يلحون- حتى يقدموا على تجربة الزواج، ويبدو أيضاً أن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل، فمن أنت يا صديقي حتى تقنعهم، وأنت لا تعرفهم ولا يعرفونك، إنهم لن يسمحوا لك حتى أن تتحدث في شأنٍ هو في غاية الخصوصية كهذا الشأن، ثم هَبْ أنهم سمحوا لك بالتدخل فإنك في أيامنا هذه لا تستطيع أن تؤثر على شابٍ أو مراهقٍ لتقنعه بما يخالف هواه، فما بال أولئك المثقفين من صفوة وأشراف المجتمع!!
- شكرا لك يا صديقي على كلماتك الغالية التي تحاول أن تثبط بها عزيمتي، وتفتر همتي وتُفني شغفي
- كلا والله يا يوسف ولكني كنت أحاول أن أعيدك إلى الواقع بعدما رأيتك وقد أفلت لجام خيالك.

قال بإصرار:
- الواقع نحن من نصنعه
- هذا ليس واقعاً، بل سرابا
- ربما وجدتُ السراب ماءً
- أخشى أن يحدث العكس
- دعني أخوض التجربة
- أنت جادٌ إذن؟!
- لن أخسر شيئاً
قال يحيى في يأس:
- افعل ما تريد
قال يوسف بنبرة لطيفة لينة:
- ألا تريد أن ترى القائمة التي أعددتها؟
- أية قائمة؟!
- قائمة الأسماء التي سأبدأ بها.. سأبدأ بالكتاب والأدباء، وقد اخترت خمسة منهم.
صمت برهة ثم قال ممتعضاً:
- هاتها
أخرج من جيبه ورقة منثنية إلى نصفين وأعطاها له.. تناول يحيى الورقة وبدأ في فردها وقراءة الأسماء بصوت مرتفع بعض الشيء:
1 - زاهي علي
2 - منير الصاوي
3 - مجدي عبد العليم
4 - محمد المالكي
5 - نيرة مراد

بعد الانتهاء من قراءة الأسماء رفع رأسه إلى صديقه قائلاً في دهشة:
- ما هذا؟!!
أجاب يوسف:
- أعرف أنها قائمة قصيرة ولكني فضَّلت أن أبدأ على نطاقٍ ضيقٍ ثم أتوسع شيئاً فشيئا.
- أنا ما قصدت قصر القائمة بل قصدت ثقلها.. ألا تعرف لمن تلك الأسماء التي حَوتْها ورقتك الهزيلة؟! إنهم صفوة الأدباء ودرة المثقفين في البلد، الذين من الصعب عليك حتى أن تطرق أبوابهم لا أن تتحدث إليهم!
- يبدو أنك تستهين بصديقك ولا تعرف عن عزيمته وإصراره إلا القليل
- لا أدري ما هو مصدر تلك الثقة التي لديك!
- إيماني بصلاح فكرتي ونجاح تجربتي.
- أخشى ألا تجني سوى الفشل
- لن أفشل يا صديقي وسترى

قال يحيى بنبرة يائسة:
- افعل ما بدا لك
ابتسم يوسف قائلاً:
- سأشاركك كل خطوة أخطوها
- على الرحب والسعة يا صديقي
- سأذهب غدا بإذن الله إلى أول اسم في الكشف: الدكتور زاهي علي (قالها في حماس)
همس يحيى في قلق:
- ربنا يستر

طاووس الأدب

صباح اليوم التالي بدأ يوسف رحلته بالتوجه إلى مكتب الدكتور زاهي علي.. الكاتب المرموق بعد أن حدد موعدا مسبقا من خلال السكرتارية الخاصة بمكتبه ليجري معه حواراً صحفياً، وصل يوسف في الموعد المحدد لكنه انتظر خارج المكتب ما يقارب الساعة والنصف، وأخيرا أذنت له السكرتيرة بالدخول، وعندما دخل إلى غرفة مكتبه وجده يقف بجوار رف مكتظ بالملفات والأوراق، نظر إلى يوسف نظرة خاطفة وأشار إليه بالجلوس في صمت ثم عاد يتفحص الملفات. جلس يوسف في بطءٍ وهدوء وأخذ يراقب دكتور زاهي بنظرات فاحصة -فهذه أول مرة يقابله وجهاً لوجه- كان في الخمسين من عمره، شعره ينضح بالسواد الحالك واللامع بشكلٍ تتحدث فيه جودة الصبغة السوداء عن نفسها، وجهه لا يخلو من نضارة رغم بعض الخطوط المرسومة على صفحته، يرتدي ملابس شبابية، يبدو أنه اسمٌ على مسمى فهو يبدو كالطاووس في خيلائه وزهوه بنفسه، رفع يوسف بصره عنه ثم أعاده ثانية بسرعة خاطفة عندما لمح حذاء السيد زاهي أحمر اللون. شعر يوسف بغرابة شديدة في مظهره، فهيئته وملابسه لا تتناسب مع عمره ولا مع مؤلفاته الجادة الهادفة، كما أن لون الحذاء الأحمر قد أدهش يوسف الذي يخجل أن يرتدي حذاءً مثله وهو ما زال في العقد الثالث من العمر فما بال هذا الرجل الذي قد شارف الخمسين!! ولكن كل إنسان حرٌّ فيما يفعل، ربما له معتقدات وأفكار لا أدركها فهو مفكر كبير ذو عقلية ناضجة. هكذا تحدّث يوسف إلى نفسه قبل أن يتحدث إلى

زاهي. جلس دكتور زاهي إلى مكتبه وأشعل سيجاراً ورفع رأسه وكأنها تبلغ عنان السماء وبادر قائلاً: في أي جريدة تعمل؟
قال يوسف في ارتباك: جريدة المهد
- سمعت عنها قليلاً.. فهي جريدة مازالت في المهد (ضاحكاً ضحكة مدوية سخيفة)
- نعم ولكنها تخطو خطوات واسعة للأمام (قال يوسف في حماس)
قال باستعلاء:
- أنا لا أجري أية حوارات سوى مع كبرى الجرائد والمجلات ولكني وافقت هذه المرة كي أعطي فرصة للناشئين أمثالك وأمثال جريدتك.
- هذا كرمٌ من سيادتك وفضل.. هل تأذن لي ببدء الأسئلة؟
قال زاهي في حنق:
- أسئلة؟! أمثلي تُوجه إليه أسئلة؟!
رد يوسف في حرج قائلا:
- عذرا يا دكتور.. ما قصدت أسئلة، بل أقصد أن أبدأ الحوار مع معاليك
قال متعالياً:
- حيثما وُجدتُ يا فتى فأنا من يبدأ وأنا من يُنهي
- معذرة إلى سيادتكم.. من أين تريد سيادتك أن تبدأ؟
رجع بكرسيه إلى الوراء ثم قال:
- سأحدثك عن نفسي وأذكر لك كل ما تريد معرفته دون أن ترهق نفسك أو ترهقني بالأسئلة، وأردف قائلاً: إني نشأت في أسرة متواضعة، وكنت طفلاً نابغاً يسبق أقرانه، كنت طَلِق اللسان سريع البديهة، ودائما ما كنت الأول على زملائي في المدرسة وفي الجامعة أيضاً، عشقت الكتابة منذ الصغر، وطالما نحتُّ الصخور حتى توصلت لتلك المكانة المرموقة التي ما وصل إليها أحد من كُتَّاب اليوم، أما عن اتجاهي

الفكري فجميع القراء يعرفون أن اتجاهي تحليلي واقعي، وكيف أني أتبنى في كتاباتي المشاكل التي تواجه المجتمع، وكم أنا حريص على الحث على بناء إنسان سوي قادر على التقدم والتطوير، إنسان يفيد أسرته ومجتمعه. واستدرك قائلاً في زهو: من ممن يكتبون على الساحة حالياً يعالج مثل هذه القضايا التي تهم الفرد والمجتمع؟!!

لم يجب يوسف على سؤاله فقد شرد به كلام زاهي -الذي أُشرِب بالغرور- عن مجرى حديثه، ما هذا الكِبر!! إنها الخُيلاء تتجسد في شخص، لو كان الغرور رجلا لكان هذا الرجل.

قال زاهي في غضب: أشاردٌ أنت؟!

أجاب يوسف في فزع:

- كلا لا يوجد طبعا في الدنيا كلها كاتبٌ مثلك (قالها يوسف على مضض)

وقطعت حديثهما مكالمة تليفونية تلقاها سيادته، المتحدث امرأة.. لابد أنه يعرفها جيداً فهو غير متكلف معها في الحديث، ولكن المكالمة بدأت تأخذ مجرى غير مريح، الحديث مستتر لكنه مبتذل، كيف يتحدث هذا الرجل مثل هذا الحديث في حضرة ضيف!! أياً كان من هو الضيف؟! لكنه لا يعتبرني ضيفاً، هو يراني صعلوكاً جاء يشحذ منه حواراً، لا قيمة لوجوده أو عدمه، بل ربما لا يراني من الأصل.

أهذا هو الرجل الذي قصدته لأحثه على الزواج!! أهذا الذي أمِلتُ أن يربي أبناءً صالحين عظماء!! إن من يقرأ كتبه يعتقد أنه رجلٌ مثاليٌ، إن الكثير من الفتيات يتمنونه زوجاً، والعديد من الرجال يتمنونه صِهراً، كل هذا بسبب كلماته الرصينة الساحرة التي تأسر كل من يقرأها، وهو مع الأسف يختلف عنها تمام الاختلاف، بل إنه لا يعرفها، يفصل بينه وبينها بحور وجسور، تُرى هل يفقه ما يكتب؟! هل يُعقل أنه لا يفقه

كتاباته!! أم إنها خدعة يخدع بها الناس ليجتذب إليه قراءً وجمهوراً، ولكي يُشار إليه بالبنان في كل مكان يذهب إليه، فهو كما رأيت يعشق الأضواء ويحب أن يكون مركزاً لاهتمام الجميع.

يا إلهي شتان بين ظاهر المرء وباطنه، رحم الله امرأً يُظهر ما يُبطن. إن أكبر خطأ يقع فيه الإنسان أن يحكم على غيره مما يُظهره للناس، فالنفس كالبحر غائرة الأعماق، متقلبة الأحوال، تحوي الصخور كما تحوي الكنوز، إن ما يبدو من البحر ليس سوى اليسير وما يخفى منه أكبر وأعظم، وكذلك هذا الذي يمشي على رِجلَيْن تراه كائنا بسيطا وفي داخله من العُقد والمتشابكات والهموم ما تنوء بحمله الجبال.

آه لو يعلم الناس كم هي خادعة ظواهر الأشياء، لو يعلم الفتيان والفتيات أن هذا الشخص الذي يشيرون إليه بالبنان ويحسدون عليه أهله وأصحابه إنما هو نقمة عليهم لا نعمة كما يتخيلون، مثلما جئت أنا إلى هنا وأنا أتوهم أنني سألقى رجلا فاضلا سوياً، فوجدته مختلا معقدا نرجسياً، آه إن آفة المرء خياله، إن الإنسان في الخيال سلطان، يأمر فيُطاع، يريد فيحصل، تتحقق له الأمنيات قبل أن يتمناها، فلا عقبات في الخيال، ولا منغصات. في الخيال يكمل الإنسان نقصه، ويقوي ضعفه، يداوي جرحه، ويجد ضالته. في الخيال دائما ما يرسم الإنسان صوراً مثالية للأشخاص، صوراً ليست لها علاقة بصورهم الأصلية وإنما هي صورة من خيال في عقل أو قلب تمناها فصاغها في خياله كما يحب ويهوى.

إني لا أطيق رؤية هذا الرجل ليته يطردني فأتخلص من ثرثرته وسخافته وخيلائه بنفسه. إنه قد أحسن صنعا بإقلاعه عن الزواج، وإن كنت لا أعتقد أنه مضربٌ عن الزواج وإنما لم يجد امرأة تقبل به، فمن تلك المرأة التي تستطيع أن تحتمل رجلا مثله؟!

انتهى زاهي من مكالمته التليفونية السخيفة واستعاد يوسف من حواره العميق مع نفسه، واستأنف حديثه عن نفسه وعن عظمته وعن كونه وحيداً فريداً في هذا الزمان، وظل يوسف يستمع إليه على كُرهٍ حتى انتهى من حديثه وأنهى اللقاء وأطلق سراح يوسف أخيراً.
خرج يوسف من مكتبه يتشمم الهواء الطلق كمن كان حبيس الأنفاس منذ زمن بعيد، ورأي أنه لابد أن يتعافى أولا من هذا اللقاء قبل أن ينتقل إلى الاسم الثاني في الكشف.

زعيم المضربين

مر ثلاثة أيام على هذا اللقاء اللعين -كما وصفه يوسف- بينه وبين الدكتور زاهي وكان قد قرر زيارة مكتب الأستاذ منير الصاوي الصحفي الشهير، وكان رجلا منضبطاً على عكس سابقه فقد قابله في الموعد المحدد، كان الأستاذ منير رجلا قصير القامة بعض الشيء، بشرته قمحية اللون، يتفجر في شعره البياض رغم أنه لم يبلغ الأربعين بعد، يغلب عليه حس المرح والفكاهة. رحب به واستقبله بلطف شديد، عرَّفه يوسف بنفسه، وبدأ معه الحديث عن تاريخه ورحلته ومقالاته وموضوعاته، وبدا له أن يتطرق إلى الموضوع بشكل عام في البداية وكان حواره معه على هذا النحو:

- أستاذ منير الذي طالما أهمَّه المجتمع ومشاكله والتغيرات التي تطرأ عليه، وحيث إن قضايا المجتمع هي شاغلك الشاغل في مقالاتك فما رأيك في ظاهرة إضراب بعض الناس في المجتمع عن الزواج؟

أجاب الأستاذ منير باندفاع:

- إضراب!! عن أي إضراب تتحدث يا سيد؟!

- إضراب بعض الناس في المجتمع عن الزواج والمكوث حتى سنٍ تبدو متأخرة بعض الشيء دون زواج.

قال بنبرة يملؤها التهكم:

- يبدو أن لا أحد يرى هذا الإضراب غيرك، إني أتلقى دعوات لحفلات زفاف من الأهل والأصدقاء والمعارف أكثر مما أتلقى التقارير اليومية في الجريدة، إني أرى معدلات الزواج قد ارتفعت، لدرجة أني كنت أقول:

"إن الناس تتزوج من كثرة الملل" فمن أين جئت بمعلوماتك القيِّمة هذه؟!
بدت ليوسف الفرصة مواتية لكي يلقي الضوء عليه هو في سياق الكلام دون أن يشعر أن السؤال مقصود أو مُقحَم داخل الحديث فقال بنبرة ماكرة:
- إني لا أقصد عامة الناس، بل أقصد طبقة المثقفين، ألا تتفق معي أن هناك العديد من مثقفي المجتمع مضربون عن الزواج لما قارب الأربعين من العمر والخمسين أيضاً؟!
فكَّر الأستاذ منير قليلاً ثم أجاب بهدوء:
- نعم أتفق معك بعض الشيء، فهناك عدد لا بأس به ممن أعرفهم لم يتزوج بعد، ولكن ما يضيرك من هذا؟
- ألا ترى أن مثل أولئك المثقفين أحق بالزواج والإنجاب من غيرهم؟!
سأل الأستاذ منير في دهشة:
- لماذا؟
رأى يوسف ألا يفصح عن هدفه مباشرة فأجاب وهو متلعثمٌ بعض الشيء:
- حتى لا تضيع جينات إبداعهم هباءً
ضحك منير ضحكة عالية وقال:
- سببٌ غريب.. لكنه وجيه
- تُرى هل سبب الإضراب واحد عندهم جميعاً؟
- لا أعتقد ذلك
- هل تعتقد أن لكل واحدٍ منهم سبباً يختلف عن أسباب الآخرين؟!
- بالتأكيد
- هل تحدثت إليهم أو إلى بعضٍ منهم في هذا الموضوع من قبل؟

- كلا بالطبع
- فكيف تأكدت إذن أن أسبابهم مختلفة؟
- لأن شخصياتهم مختلفة، وحيواتهم مختلفة، وظروفهم مختلفة، فلابد أن تكون أسبابهم مختلفة.
- وماذا عنك يا سيدي؟
- عني أنا؟!
- ألا تعُدّ نفسك من المضربين؟

رفع يده وقال بصوتٍ حارٍّ عالٍ:

- بل أنا شيخُ المضربين وزعيمهم

ضحك يوسف في تعجبٍ وسأل:

- ألا تكتفي بكونك مضرباً؟! بل تتزعم المضربين أيضا!
- بلى.. أتزعم كل من يؤمن بفكرتي ويسير بمبدأي
- مبدؤك هو عدم الزواج!
- مبدأي: لا مزيد من المهازل
- مهازل!!
- نعم.. مهازل
- هل أطمع في مزيد من التوضيح؟!
- بكل سرور لعلي أكسب فيك ثواباً، وأمنعك أن تقدم على الزواج (قالها وهو يمزح)
- لقد فات الوقت يا سيدي، فأنا متزوجٌ ولدي طفلة
- إذن لا مكان لك بين المضربين، يكفيك مقعدك بين المغفلين (ختم جملته بضحكةٍ عاليةٍ من القلب)

ضحك يوسف وقال:

- أكرمك الله يا سيدي

- لا تؤاخذني فأنا اعتبرتك أخاً أصغر فمزحتُ معك
- لا عليك يا أستاذ، لا شك وأني مغفلٌ فعلاً
- حاشا لله.. أكمل أسئلتك وانس ما قلتُ
- بل سأسألك عما قلتَ.. لماذا أنت مضرب (مستدركاً) أنت لست مجرد مضرب، بل إنك سعيدٌ بإضرابك هذا

تنهد تنهيدة حارة ثم قال:

- لست سعيداً بل مقتنعاً والفرق بينهما كبير
- معذرةً.. أنا لا أفهم شيئاً
- إن الكثير من الفتيان والفتيات يتزوجون كل ليلة، فماذا أضاف زواجهم؟

صمت يوسف منتظراً منه تكملة الحديث، فقطع الأستاذ منير صمته قائلاً: أجبني.. إني أسألك

قال يوسف في دهشة:

- تسألني أنا؟!!
- بل أسألني أنا (قالها منير ساخراً)

قال يوسف مرتبكاً:

- عفواً يا سيدي، لقد أضافوا الكثير من الأبناء والبنات
- وماذا أضاف هؤلاء الأبناء والبنات؟!
- معذرة.. إني لا أفهم هذا السؤال أيضاً
- فلأسألك بصيغةٍ أخرى؟
- ما الهدف من الزواج.. ما الطائل من ورائه إن كنت لا تفهم كلمة الهدف؟
- بل أفهم.. الهدف منه عمارة الأرض

عقب الأستاذ على كلامه مؤيداً:

- عمارةُ الأرض.. نعم هو عمارة الأرض، أتعرف ما المقصود بعمارة الأرض؟!
- نعم.. أن تُسكن الأرض وتُستَصلح وتتوارثها الأجيال
- هذا الكلام النظري، أما الواقعي فماذا؟
- الواقعي!!
- نعم.. ما يحدث في الواقع أنها تُفسد ولا تستصلح، خلقها الله جميلة وخلق الإنسان ليحافظ على هذا الجمال ويضيف إليه جمالاً، فبدد هذا الوغد الأمانة وأفسد وتجبر وشوَّه الجمال بدلا من أن يحافظ عليه ويضيف إليه
- أعتذر مرةً أخرى لعُسر فهمي، فأنا لا أعرف ما شأن هذا بالزواج!!
- كثرت اعتذاراتك، لكن لا بأس.. دعني أشرح لك باستفاضة كي لا تسأل ولا تعتذر.. إني أرى أنه لا يتزوج و ينجب أطفالاً في هذا الزمن إلا أناني
قال يوسف في دهشة:
- أناني!!
- نعم.. أناني.. لأنه يعلم ما سيقدم عليه أبناؤه من شقاء وتعاسة، ومع ذلك يصر على الإنجاب من أجل إسعاد نفسه بهم أو حتى يكونوا سندا له في الكِبَر. يفكر في حاله دون أن يفكر في حالهم.
- عفوا.. إني لا أتفق معك في هذا، إن الآباء لا يشغلهم شاغل في هذه الدنيا سوى سعادة أبنائهم، بل إنهم دائما ما يتمنون لهم أن يكونوا أفضل منهم حالاً
- أنا لم أعترض على هذا، لكنه حبٌ غشيم، يلزمه بعض الوعي، وإذا تدخل الوعي قليلاً لن ينجب أحد على وجه هذه الأرض
زادت دهشة يوسف قائلا:
- وفقا لهذا التصور لا يوجد أحدٌ في هذا الكون واعياً!

- كونٌ فاسد، إننا نحيا في بيئة تنضح بالفساد والقبح؛ ماتت فيها الضمائر وأُقبِرت؛ ليس للضعيف أو الفقير مكان فيها، والمحترم أيضاً ليس له فيها مكان. إن مشكلتي في هذا الزمان أن أبي وأمي قد أحسنا تربيتي فصرتُ لا أستطيع التعامل مع رعناء هذا العصر، لا أرتضي مجاراتهم، ولا أقوى على كف شرورهم، وغيري الكثير من أبناء جيلي من تربوا على الأخلاق الحميدة والقدوة الحسنة، التي هي عملات تم إلغاؤها، وأصبح التعامل بعملات الصفاقة والوقاحة والتبجُح. إن من لديه طفل اليوم يرتعد من القلق على حياته ومستقبله في ظل الظروف القاسية التي نعيشها على هذه الأرض، وفي ظل الظلم والقهر، وندرة العدل بين البشر، وتجبُّر القوي وإذلال الضعيف، وانتزاع الرحمة من القلوب.

- أتفق معك تمام الاتفاق في هذا، إن المجتمع أصبح في حالٍ يُرثى لها، وهذا ما يحتِّم على المثقفين أمثالك أن يتزوجوا وينجبوا فيربون تربية حسنة، ليحد ذلك من تلك الموجة التي ظهرت على السطح

- حسنا.. وإذا تزوجت وأنجبت فكيف ترى أن أربي أبنائي!!

(أردف مجيباً على نفسه بنفسه) أربيهم كما تربيتُ فيصبحون غرباء مثلي في هذا العالم؟! أم أربيهم على أخلاق هذا الزمان فيصبحون جزءاً دميماً منه!

أطرق يوسف طويلاً ولم يُجب

قال منير في حدة:

- أجبني أيها الصحفي الواعظ

- علِّمهم كما تعلمت يا سيدي، فلا يصح إلا الصحيح

قال بائساً:

- صدقت، ومعك كل الحق، ولكنهم سيشقون بحسن أخلاقهم، ويُعذبون بتربيتهم الفاضلة وهذا ما لا أرتضيه لهم. إن آباءنا لم يتوقعوا هذا التدني في المجتمع عندما أنجبونا، ولكننا نرى الآن كل شيء بأعين رأسنا، والويل لمن لا ينتبه، إن هذا الكون غير صالح للحياة الآدمية، كذب من قال إن هذا الكوكب صالح للحياة.

- لكنها سنة الحياة يا أستاذ، لقد خُلق الإنسان في كَبَد

- وأنا جنبتهم ذلك الكَبَد، واستأثرت به لنفسي مرتين، الأولى ليست بإرادتي، وهي وجودي في هذا العالم الموبوء، أما الثانية فبكامل إرادتي، وهي حرماني من عاطفة الأبوة، من أجل أبناءٍ لي رفقت بهم وأنا لم أنجبهم بعد.

أطرق يوسف برهة ثم قال:

- همٌ يبكي، وهمٌ يُضحك، جئتك لأقنعك بالزواج فأوشكت أن تجعلني أندم على زواجي.

ضحك منير ويوسف ضحكات كثيرة ولكنها غير صافية

جرح قديم

جاء موعد اللقاء الثالث مع كاتب وأديب من طراز خاص، يُطلق عليه الجميع في الوسط الأدبي لقب "الأستاذ" وهو الكاتب الكبير مجدي عبد العليم. التقى به في منزله الفخم في أطراف المدينة بعيداً عن الزحام والضجيج، فبدا له من الوهلة الأولى أن الأستاذ يعشق الهدوء، كما بدا له كم هو مرتبٌ ومنظمٌ منزله، وكم هو رفيعٌ ذوقه، ومرهفٌ حسه، كان هذا انطباع يوسف عند رؤية منزل الأستاذ وأثاثه قبل أن يرى الأستاذ نفسه، وعندما قابل الأستاذ واستمع إليه رأى أن انطباعه الجميل عنه ليس سوى القليل، فهو طيب الخلق، رفيع الذوق، مرهف الحس. لاحظ يوسف طوال جلسته مع الأستاذ مجدي أنه يرتب الشيء نفسه عدة مرات، وفجأة يقف ليحرك المنضدة يميناً ويساراً لتستقر في زاوية معينة يقصدها بعينها، إنه يعيد ترتيب كل شيء.. ما ترك شيئاً حوله لم يحسن هندامه ويعيد تسكينه، والغريب أنه لا يتوقف عن الحوار أو الإجابة على أسئلة يوسف أثناء قيامه بذلك، وبعد أن استقر الرجل بعض الشيء، صال يوسف وجال معه في الحديث إلى أن وصل إلى السؤال المنشود الذي كان كل ما فات من أسئلة ما هو إلا مجرد مقدمة للوصول إلى إجابته هو وليس شيئاً غيره. رأى يوسف أن يسأله هذه المرة بشكل مباشر، فلا مانع أن يسأله سؤالاً عن حياته الشخصية، وبدأ يمهد لسؤاله قائلا:

- تحدثنا عن كل ما يهم القرَّاء من أعمال حضرتك الأدبية، ولكن مِن حق القراء أيضاً أن يعرفوا شيئاً عن حياة كاتبهم الشخصية (مستدركاً) طبعا إذا سمحت بهذا

ضحك الأستاذ قائلاً:

- إن القرّاء هم حياتي الشخصية، فليس في حياتي سواهم

فاستجمع شجاعته وسأل:

- أستاذ مجدي.. هل تسمح لي أن أسألك عن سر إضرابك عن الزواج؟!

- ألا تعرف حقاً ما سر إضرابي عن الزواج؟! إن كل الناس تعرف السبب، وطالما كتبتُ عنه أو صرّحت به في حواراتٍ سابقة

- أعرف طبعا يا أستاذ، فأنا متابعٌ جيدٌ لسيادتك، وأعرف أن السبب هو جرحٌ قديم تعرضت له في بداية حياتك جعلك تقلع عن الارتباط بعدها للأبد

- أمرك عجيب.. فلماذا تسأل إذن؟!

- أسأل عن التفاصيل يا سيدي، تفاصيل هذا الأمر الجلل الذي جعلك تضرب عن الزواج طيلة العمر

أطرق الأستاذ طويلا ثم قال:

- إن حياتي كتابٌ مفتوح للجميع، ماعدا أمراً واحداً هو ذلك الذي تسأل عنه، فلقد حرصت طول حياتي ألا أعلنه لأي سببٍ كان

- لماذا؟

- لأنه أمرٌ شديد الخصوصية، ولكن السبب الأهم أن ذكراه تؤلمني، والناس لا ترتوي من الحكايات، فسأضطر لتكراره مع كل محاور، وفي كل لقاء، وإذا لم أكرره أنا، رددوه هم، وذكَّروني به، فقررتُ ألا أكشف جرحي للناس، فالجرح المكشوف لا يلتئم.

أمسك يوسف بهاتفه -الذي كان يسجل عليه الحوار- وأغلقه تماماً، ونظر إلى الأستاذ مجدي قائلاً بحرارة:

- أعاهدك ألا أنشر حرفاً مما تقول يا أستاذ، فإذا وجدتني أهلاً لثقتك تحدثت إليّ، وأقسم لك أنك لن تندم
قال الأستاذ في دهشة:
- عجباً لك.. ماذا ستستفيد من معرفة شيءٍ كهذا مادمت لن تنشره
أسعفت يوسف سرعة بديهته وقال في عجل:
- أحب أن أستفيد من التجارب السابقة، وخاصةً تجارب العظماء
ضحك الأستاذ ضحكة هادئة وقال:
- الله يحفظك.. ولكن ربما إذا سمعت عن تجربتي الأولى لا تجد فيها أي عظمةً
- كلا يا أستاذ، إن الإنسان لا يُحاسَب على تصرفاته في بداية حياته، فكلنا في بداياتنا لا نحسن اتخاذ القرارات، ولا نعرف أي طريقٍ نسلك.
شرد الأستاذ وكأنما استدعاه هاتفٌ من الماضي، وتغيرت ملامح وجهه، وارتسمت عليه تعبيرات من الصعب قراءتها، وفجأة خرجت من فمه جملة تشبه طلقة رصاص خرجت من سلاح دون قصد:
- سأحكي لك.. (امتنع فجأة عن الكلام، وبدا على وجهه بعض الندم) ثم استدرك قائلا:
- أتعرف إن تم نشر حرف...
قاطعه يوسف بسرعة:
- إن نُشر حرفٌ واحد ورقياً أو شفوياً اصنع بي ما شئت.
- حسنا
استرخي الأستاذ على الأريكة التي كان يجلس عليها، ورجّع رأسه للخلف، وطفق يحكي دون أن ينظر ليوسف:
- عندما كان عمري اثنين وعشرين عاماً -أي منذ عشرين سنة- أحببت فتاة، لا.. أحببتها هذه كلمة لا ترقى لدرجة حبي لها، كنا معاً في كلية

الآداب، كنت في ذلك الحين فقيراً لا أملك شيئاً، وعندما تخرجت لم أجد عملاً مجزي الراتب ليساعدني على تكاليف الزواج، وبالتالي لم أستطع أن أتقدم لخطبتها، وكانت هي لا تبالي بفقري ولا تكلفني فوق طاقتي، وكانت دائما تقول: بك اكتفيت عن كنوز الأرض. كنت أسمع منها هذا القول وأشعر أنني أحلّق في السماء مرفرفاً، لا تسع الأرض فرحتي، كنت أتمنى أن أحضر لها نجوم السماء، ولكن يدي كانت أقصر من أن تصل إلى الأرض. مرت ثلاث سنوات، وحبنا لا يفتر ولا ينقص، ولذلك سعيت أن أسافر لإحدى دول الخليج حتى أستطيع أن أتقدم لخطبتها، وأن أوفر لها الحياة التي تستحقها، ولتكتمل سعادتها -بحبها لي- برغد العيْش معي.

هنا سكت الأستاذ سكتة طويلة بعض الشيء.. وتنهد تنهيدة حارة ثم أردف قائلاً:

- كان لي جارٌ قد نجح في السفر إلى إحدى دول الخليج، فسعيت إليه كي ييسر لي الإلحاق به، وبالفعل كان وفياً صادقاً، وكم هو نادر الوفاء والصدق! أرسل إليَّ وقد مهَّد لي كل السبُل هناك، واتفقتُ معه وجهزتُ كل الأوراق واستخرجت جواز السفر، واستعرت المال اللازم للسفر من بعض الأقارب والأصدقاء، وحجزتُ تذكرة السفر وتحدد موعد الرحيل.

(تنهد تنهيدةً أخرى) واستكمل حديثه وقد بدا كالهائم على وجهه:

- وجاء يوم السفر، وكنت اتفقت معها أن نلتقي صباح يوم السفر كي أودِّعها، لأنها لن تستطيع أن تأتي إلى المطار حتى لا يسبب لها وجود أهلي بعض الحرج، وهم لا يعلمون عن قصتي معها أي شيء. ذهبت لرؤياها، وعندما وقعت عيناي عليها ذُهلت لمشهد عينيها وقد توَّرمتا من كثرة البكاء، جرت نحوي وهي تصرخ بصوت متهدج قائلة: لا تتركني، أرجوك لا تتركني، لن أستطيع أن أحيا بدونك يوماً واحداً. أقبلتُ عليها

وحاولت أن أهديء من روعها قائلا: إن شاء الله لن تطول غيبتي، أعاهدك على هذا، إني سوف أعمل الليل والنهار، وأحرم نفسي ليس من متع الحياة فحسب بل من ضرورياتها أيضاً حتى أعجِّل بعودتي، وأعوضك الغياب. لكنها لم تكف عن البكاء، وظلت تردد: لا.. ابق هنا.. ابق معي..إن كنت تحبني حقاً لا تتركني. ذكرتُ لها أني لن أجعلها تشعر بغيابي عنها فسوف أتواصل معها تليفونياً باستمرار، وأن السفر أضحى ضرورياً لنستطيع أن نتزوج. قالت: لا أريد مالاً.. لا أريد شيئاً.. أريدك أنت فقط.. سوف أقف في وجه أهلي إن رفضوا، سوف أقف في وجه الدنيا كلها. وافترقنا وهي مازالت تبكي، شعرت بروحي تتمزق من أجلها، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟!

هنا توقف الأستاذ عن الكلام مرةً أخرى وأخذ جرعة ماء ثم استكمل حديثه:

- غابت الشمس في هذا اليوم بسرعة لم يسبق لها مثيل وجاء موعد التحرك من المنزل إلى المطار في السابعة مساءً. كنت قد أعددت حقائبي، وأمي كانت تبكي بكاءً مرّاً، وأبي وإخوتي على وجوههم حزنٌ عميق، لكنهم كانوا جميعاً يتمنون لي السلامة ويحاولون أن يشدوا من أزري، وكانوا قد ارتدوا ملابسهم ليصحبوني إلى المطار. أما أنا فكنت في عالمٍ غيرعالمهم، ودنيا غير دنياهم، إني ما زلت هناك.. في هذا اللقاء المرير صباح اليوم، فصورتها وهي تبكي لا تفارق عيني، وصوت بكائها وهو يرجوني يتردد في أذني كالصدى.. كان قلبي يعتصر من الألم، والدمع قد تحجر في عيني، ولم أقو حتى على النطق. وصلت السيارة التي ستنقلنا إلى المطار، حمل إخوتي الحقائب، وسبقوني ليودوعها في السيارة، ولحق بهم أبي وبقيت أنا وأمي.

أردف بصوتٍ يصحبه مرارة:

- آه.. أمي.. إنها الأم وحدها التي تشعرك أنك مازلت طفلا، الأم هي التي تستطيع أن تصرخ في وجه العالم كله أمامها، هي القادرة على تفجير ذلك البركان الخامد بين ضلوعك، هي التي تنصاع أمامها دموع عينيك التي تستعصى عليك أمام سواها، هي التي ينهار أمامها ذلك الجبل الذي يخرج للناس شامخاً، فيصبح بين يديها حفنة من الرمال تذروها الرياح.
صمت برهة ثم استطرد قائلاً:
- لا أعرف ماذا حدث وقتها، وكم من الوقت مر، لكني انتبهت على صوت أمي المذعور وهي تشير لأبي وإخوتي من الشرفة وهي تقول: اطلعوا.. اطلعوا بسرعة، اتركوا الحقائب، اتركوا كل شيء. صعد أبي وإخوتي مسرعين هَلِعين ليتبينوا الأمر فوجدوني منهاراً أرتعد كمن أصابته حمى، ودمعي ينسكب متتابعاً كالمطر، ذُعر الجميع من حالتي وسألوا جميعاً في صوتٍ واحد ماذا حدث؟! ما له؟! ما به؟! قالت أمي جملة واحدة أجابت بها على كل الأسئلة، وأسكتت جميع الألسنة، وجعلت الصمت يعُم أرجاء المكان للحظات: "إنه لا يريد السفر".
اختلطت الأصوات وانهالت التساؤلات: ماذا؟! كيف؟!! لماذا؟! ماذا حدث؟! وأمي المسكينة تجيب على كل التساؤلات بجملة واحدة: "لا أعرف" أداروا وجوههم نحوي، ووجهوا لي عيْن الأسئلة تارةً أخرى، وأنا على نفس الحال، أرتعد وأبكي ولا أجيب. وانهالت الكلمات على سمعي بين تعجبٍ واستنكارٍ، فهذا يقول: كيف بعد كل هذه النفقات التي صُرفت، والأموال التي اقترضت تلغي سفرك!! وهذا يردد: أخائفٌ أنت من الغربة أم من الوحدة؟! وذاك يقول: هذا نتاج التدليل الزائد، وأنا على نفس الحال التي تملّكت مني. وصاحت أمي أخيراً: كفاكم.. صبراً.. صبراً عليه.. وتقدمت نحوي وربتت على كتفي، وجففت دمعي بيديها وقالت: يا بني إنك قد عزمت على السفر لتكسب الرزق الحلال، وتؤمّن

لك مستقبلاً طالما حلمت به، وقد اقترضت الأموال، وخطوْت أصعب الخطوات، فلا تضيع كل هذا في لحظة تملّك فيها الشيطان منك، لا تنسَ أنك الآن مدينٌ بأموال السفر، فإذا ألغيت سفرك كيف ستردها براتبك الهزيل الذي تتقاضاه هنا، حتى عملك القديم قد تركته وحلّ محلك شخص آخر، فلم يبق حلٌ أمامك سوى السفر، هيا يا بني، هيا.. انهض واطرد شيطانك هذا وتوكل على الله.

شعرت بهدوء وسكينة بمجرد أن اقتربت مني أمي، فتوقفت عن البكاء، ولكن مازالت تعتريني رعدة خفيفة، وشردتُ قليلاً وأنا أقول لنفسي: كيف تقول لي أمي سافر، وهي التي كانت تبكي لسفري بكاءً حارًّا منذ قليل، كيف تحثني على الابتعاد عنها في سبيل العمل والمستقبل والمال، في حين أن حبيبتي لا تستطيع فراقي وتريد بقائي معها ضاربة بكل شيء عرض الحائط!! أنا أعرف أمي جيداً ولكن الآن لا أفهمها. ضاق صدر أبي وتركنا وخرج إلى الشرفة وأشعل سيجارته، وطالت المناقشات والمجادلات حتى فات موعد الطائرة، وانتهى الأمر.

نزل إخوتي ليحضروا الحقائب من السيارة ويعتذروا للسائق ويدفعوا له أجر الوقت الذي مكثه في انتظارنا، وخرج أبي من الشرفة ساخطاً -عندما لمح السائق يتحرك- وقال لي بلهجةٍ حادة: نفذت ما في رأسك، لا تندم إذن فيما بعد.

قالت أمي بنية طيبة: قدر الله وما شاء فعل، ربما كان في تلك الرحلة شرٌ حماه الله منه، فما حدث كان أمراً غير طبيعي، لابد أنها تصاريف القدر، هي التي منعته في آخر لحظة، فمن يعلم ربما أصاب الطائرة مكروه، قالتها المسكينة وهي لا تعلم السبب الخفي وراء إعراضي عن السفر في اللحظات الأخيرة، لم يحتمل أبي المكوث في المنزل وسط هذه الأجواء كثيفة الغيوم. قال وهو يفتح باب المنزل في عصبية بالغة: كلام فارغ

سكت الأستاذ مجدي ليلتقط بعض الأنفاس، وانتهز يوسف الفرصة ليتحدث:

- لقد انتابني الخوف من بقية القصة يا أستاذ.. بل إني أخاف حتى أن أتوقع ما سيحدث لاحقاً.. بعد هذا الذي سمعته.. ما الذي يمكن أن يحدث ليسبب لك جرحاً؟! أخشى أن يكون شيئاً مروِّعاً.

قال الأستاذ في نبرة تهكم يملؤها الحزن:

- تخشى السماع! فماذا لو كنت تقصها وأنت بطلها؟! وكل حدث فيها قد ترك فيك جرحاً غائراً لا تداويه الأيام!!

واحمرت وجنتاه وبدا على وجهه الألم وتابع قصته وهو يضرب ذراعه بكفه ضربات خفيفة:

- قضيتُ فترة طويلة بعد هذا اليوم المشؤوم لا أستطيع أن أنظر في عين أحدٍ في منزلنا خاصةً أبي، كنت أشعر دوماً أني ارتكبت جُرماً وأنني في انتظار حكمٍ لن يُنطق أبداً. أما خارج منزلنا كنت أعيش أسعد أيام حياتي، فما كادت حبيبتي تعلم أني ألغيت سفري من أجلها، وتنازلت عن مستقبلي في سبيلها، وطرحت النفقات والديون التي تراكمت عليّ تحت قدميها، لتعبر هي فوق هذا كله، ولتعلم أنها أغلى عندي من كل شيء حتى من نفسي حتى طارت فرحاً، إني أذكر ذلك اليوم جيداً (وأردف هازئاً) كان لقاؤنا وقتها في حديقة، وعندما سمعت مني سبب بقائي أمسكت بيدي وجعلت تدور ضاحكة وأنا أدور معها وأضحك، والناس حولنا ينظرون إلينا ويضحكون. تلك اللحظة جعلتني لا أشعر بلحظة ندم واحدة وتأكدت حينها أني كنت مُحقاً في قراري، وكنت على استعداد أن أواجه الدنيا كلها ليس أهلي فقط. واستمر الحال على ما هو عليه.. سنة تمر في عقبها سنة -وكل يوم يربو حبنا ويتضاعف- لم تسألني فيها عن مال، ولم تُلح عليّ في خطبة، فهي كانت تعلم أن كل ما

أتقاضاه أجمعه لأسدد منه ديون السفر الذي تم إيقاف تنفيذه في آخر لحظة، كانت أسعد أيام مررت بها، حتى جاء يومٌ فارقٌ في حياتي، وهو اليوم التي أتيحت لي فيه الفرصة أن أعمل في جريدة مرموقة، لن أقول كنت في أول السلم، ولكن بدأت من تحت السلم، كان عليّ أن أثبت نفسي أولاً حتى أستطيع أن أصل إلى أول السلم هذا، كان الأجر هزيلاً جداً، وقصدت أن أقول أجرا وليس راتبا، لأنه لم يكن يَرقَ لدرجة راتب، ولكني تحملت كل هذا من أجل تحقيق هدفي وهو أن أكون صحفياً كبيراً مشهوراً.

قاطعه يوسف قائلا:

- وقد حققت هدفك وأكثر يا أستاذ

استكمل الأستاذ حديثه غير معقبٍ على جملة يوسف:

- أخذ عملي بالجريدة كل وقتي، فقد كنت أبذل فيه مجهودا جبارا، انشغلت عنها ووجدتها قد شُغلت عني هي أيضاً، أما أنا فبعملي الجديد الذي أسعى جاهداً أن أثبت نفسي فيه، وأما هي فبماذا؟! ما الذي يشغلها طوال الوقت هكذا؟ ومنذ متى وهي تعتذر عن لقاءٍ لنا؟! وتكرر الأمر وتوالت الاعتذارت، نلتقي مرة وتعتذر ثلاث مرات، وأصبحت النظرات غير النظرات، والكلمات غير الكلمات، تغيير أحسه ولا ألمسه، فالكلمات مازالت كما هي لكنها ليست هي. سرق هذا الأمر النوم من عيني، وشتت ذهني، لكني لم أهتدِ لسبب، حتى تلقيت منها مكالمة تطلب فيها لقائي، فتنفست الصعداء وطِرتُ فرحاً أن كل شيء قد عاد كما كان، قلت لها نلتقي في المساء، وذهبت قبل الموعد بنصف ساعة وانتظرتها بشوقٍ ملتهب، فكم اشتقت للقائنا القديم، وحديثنا الجذاب، وكلامنا الناعم الجميل الذي كان يجعل قلبي يرفرف بين ضلوعي. انتظرت حتى جاءت، لم أكن أعلم أن هذه المرة غير كل مرة،

وأن هذا اللقاء سيكون لقاءً فريداً من نوعه، فقد جاءت باكية، جريت نحوها فزعاً: ماذا يبكيكِ يا حبيبة الروح؟ إن دمي وعمري فداؤك.
لم تجب ولكني أطلت الإلحاح حتى قالت وهي تبكي: إن شاباً ميسور الحال قد تقدَّم لخطبتي وقد وافق عليه أبي. ضحكت باستهزاء وقلت لها: وماذا يهم في ذلك؟ لقد تقدم إليك الكثيرون، وجميعهم وافق عليهم أبوك، وبفضل تصميمك على الرفض انتهى كل شيء. قالت وقد أشاحت بوجهها عني: لا أستطيع أن أقف في وجهه هذه المرة، فهو مصممٌ ولن تفلح معه أي محاولات. لم أعِ وقتها ما تقول، أو ربما تعمدت أن أخفي على نفسي ما فهمته من حديثها، وقلت وأنا في حالة بين الوعي واللاوعي: لا أفهم.. ماذا تقصدين؟!!
قالت: أقصد أنه سوف يتعذر لقاؤنا فيما بعد، فسألتها عن السبب، قالت: لأنه تحدد موعد لخطبتي وقُضي الأمر. شعرت بهزة في كل خلية في جسدي وقلتُ وأنا أشعر بخروج روحي: بهذه البساطة!! قالت ببرود لم أعهده فيها: ماذا أفعل أنا؟! لو كانت حالتك المادية تسمح الآن لكنت قلت لك تقدم فأقبلك وأرفضه، لكني أعلم جيدا أن الحال الآن ليست على ما يرام. كانت أول مرة أسمع منها كلاماً عن حالتي المادية، فقد كانت دائماً تشعرني أني أغنى أهل الأرض، وبدأت أخرج عن طوْري وصِحتُ فيها قائلاً: لولا حبي لكِ وإذعاني لرغبتك، لكنت الآن أغنى من ذلك الشاب الذي تفخرين بيُسر حاله، لو كنت سافرت للعمل في الخارج، ولكني فضلتك على كل شيء، فضلتك على مستقبلي ونفسي وحياتي!
صمت الأستاذ فجأة وظهرت في عينيه بعض الدموع، ولاحظ يوسف أنه كلما تجمع في عينيه دمعٌ تناول كوباً من الماء ليشربه، كما لو كان

يحاول إطفاء النيران المشتعلة داخله بالماء، أو ربما ليساعده الماء على حجب دموعه؛ وبعد أن لملم شتات نفسه عاد يستكمل حديثه:
قالت.. لا.. ليست هي التي قالت بل امرأة أخرى لا أعرفها، قالت لي: تلك هي مشكلتك، ما كان ينبغي لك أن تستمع إلى رجائي ودموعي، ما كان ينبغي لك أن تلغي سفرك لأي سبب حتى لو كنت أنا، إنني كنت في ذلك الوقت طائشة لا أعي، أتحدث بقلبي، أفكر بعواطفي، كان يجب وقتها أن تكون أنت العقل المفكر، أن تصوِّب لي خطئي لا أن تتبعني كالأعمى!
صحت كالمجنون: أعمى!! من أعمى؟ أنا؟! نعم أنا أعمى، كنت أعمى ومازلتُ أعمى قلتها وأنا في حالة ذهول لم أمر بها في حياتي وأردفت أقول أنا الذي... فقاطعتني وقالت أعرف كل ما تود أن تقوله لكن للأسف لا وقت لدي لأسمعه الآن، فأبي ينتظرني في المنزل وإذا تأخرت عليه ستكون العواقب وخيمة، الوداع يا مجدي، أتمنى لك التوفيق وأن يرزقك الله كل الخير. قالتها بسرعة ورحلت كما يطعن القاتل قتيله ثم يتركه غارقاً في دمه ويهرب، هكذا طعنتي وهربت، هربت حتى من مواجهتي، هي تعلم جيداً كم هي صعبة المواجهة، فهي تعرف ما قدمته لها، وما ضحيت به من أجلها. ومكثت أنا في مكاني لا أبرحه، لا أعرف أين أنا، ولا من أنا، ولا ماذا حدث! كل الصور أمامي مشوشة، لم أرَ حولي شيئاً واضحاً، حتى الحزن والألم والحسرة لم أشعر بهم في ذلك الوقت: الحزن على الحب الزائف، والألم من طعنة الغدر، والحسرة على المستقبل الذي ضاع، كنت فاقد الاتزان والوعي، لا أدري بعد خيانتها هي فمن ذا يفي! وعدت إلى البيت بعد منتصف الليل، لا أدري كيف وصلت! وأغلقت باب غرفتي وانفجرت بكاءً حتى الصباح، كنت لا

أعرف للانكسار معنى قبل ذلك اليوم، لكني عرفته، وتجرعت كأسه قطرة قطرة.
صمت الأستاذ مرةً أخرى وكأنه جبلاً قد تحطم، ألقى برأسه على الأريكة وأخذ يتنفس بعمق وانتظام وعلى وجهه يبدو الألم والحزن
قال يوسف:
- ولكنها يا أستاذ قد أُجبرت على ذلك، ألم تقل أنها كانت تبكي وهي تقول لك ذلك!
أجاب الأستاذ وقد هدأ قليلا:
- لا هي لم تكن تبكي بل كانت تتباكي، والفرق بينهما كبير، فأنا أعرفها أكثر من نفسي، أعرف عنها كل شيء، أفهمها قبل أن تنطق، أين هذا البكاء من بكائها يوم سفري؟! إنه لا يعادل منه مثقال ذرة، كما أن الأمر لا يُقاس بالدموع بل بالإحساس، وشتان بين هذا الإحساس وذاك (واستدرك قائلاً): أتعرف لو أني شعرت لحظة أنها مجبرة أو مقهورة لما رددتها يوم عادت إليَّ نادمة، بل كنت أنا من سعى إليها وألقيت بنفسي تحت قدميها.
- عادت إليك! هل عادت إليك مرة أخرى؟! قالها يوسف في عجب
أجاب الأستاذ مجدي في مرارة:
- نعم.. عادت ولكن بعد فوات الأوان
قال يوسف:
- كيف حدث هذا؟
- تتعجل أنت الأحداث يا يوسف
- معذرة يا سيدي سأصمت حتى تنتهي
- لقد جُنَّ جنوني بعد هذا اليوم، وتفرغت لتعقب جميع خطواتها دون أن تشعر بي طبعا، وسألت وتحريت عن الأمر حتى عرفت من هو ذلك

الشاب المجهول، ومن أين أتى، ومتى ظهر! وكانت مفاجأة أخرى عندما عرفت أن هذا الشاب قد عرفته منذ فترة، هي نفس الفترة التي بدأت تعتذر فيها عن لقائي، إنه شابٌ مُرفَّهٌ، يمتلك أبوه الكثير والكثير، لديه سيارة فخمة تلفت الأنظار، وليست هذه كل مميزاته، بل كان شاباً وسيماً ممن يسلبون عقول الفتيات، وقد رأيتها بصحبته ضاحكة سعيدة بعد إهدارها دمي بيومين فقط، لم تُقم عليَّ حداداً، لم تسكب من أجلي دمعة، لم تُهدِ إليَّ حتى الرحمات. زالت تلك القشرة اللامعة التي كنت أحسبها ذهباً، وزال القناع فوجدت خلف وجه الملاك شيطاناً وأدركت أني أحكمت قبضتي على الهواء، وما حافظت عليه سنوات من عمري كان سرابا، لست في حاجة أن أشرح لك شعوري وقتها، والليالي السوداء التي قضيتها نتيجة ذلك الجرح الغائر. لم أستطع التعافي من تلك الصدمة إلا بعد فترة طويلة -إن كذبت على نفسي وقلت أني تعافيت- ولكن عِوض الله دائماً ما يذهل العقول، فقد سمع عني رئيس تحرير الجريدة التي كنت أعمل فيها، وعرف الكثير عن اجتهادي وإخلاصي في عملي، واستدعاني في مكتبه، وكان رجلا جميلا طيبا متعاونا، أثنى عليّ وشجعني، وقام بترقيتي في الجريدة، وبمرور الوقت بدأ يسند إلي مهاماً صعبة، وكلما أثبت كفاءة، أسند إليّ أعمالاً أصعب. ومرت السنون وأصبحت أهم صحفي في الجريدة، وتلقيت عرضاً من إحدى القنوات الشهيرة لإعداد وتقديم برنامج هام للقناة، قبلت العرض وتقاضيت أجراً ضخماً، وبفضل الله لاقى البرنامج نجاحاً كبيرا، وتعددت المواسم، وأصبحت موضع أنظار القنوات الأخرى وتوالت عليَّ العروض، وتيسرت حالتي المادية، وبالإضافة إلى ذلك أصبحت مشهوراً. كان كل تركيزي في عملي وطموحي، ولم أترك لنفسي فرصة أن أفكر يوماً واحداً في ارتباط أو زواجٍ بعد ما جنيته من ارتباطي

بها. وبعد مرور خمس سنوات وجدتها أمامي في المكتب، مر بعض الوقت كي يستوعب عقلي وتتأكد عيناي أنها هي، لكنه وحده من تعرَّف عليها قبلنا جميعاً، فقد تسارعت نبضاته، وخفقت دقاته، وبدأت آثار الطعنة القديمة تظهرعليه، وعاد الجرح ينزف، وأيقنت حينها أن جرحي لم يلتئم بعد. علا صوت أنفاسي المكتومة ولم أتحدث إليها، فبادرت هي تسأل عني وعن أحوالي، صدق المثل القائل: يقتلون القتيل ويسعون في جنازته.

طفق الأستاذ يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال في استنكار.

قال يوسف:

- ولماذا عادت إليك يا أستاذ بعدما غادرت بكامل إرادتها؟!

- جاءت لتقص عليّ قصتها، فقد انفصلت عن زوجها منذ ثلاثة أشهر لأنه كان عقيماً غير قادر على الإنجاب، وقالت لي أن أباها قد صرَّح لها بطلب الطلاق حتى لا تُحرم من نعمة الأطفال، وأنها كانت تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر حتى تعود إليّ، لك أن تتخيل، جاءتني بعد ثلاثة شهور فقط من الطلاق، أي بعد انتهاء عدتها مباشرة، كنت أنا على قائمة انتظارها بعد انفصالها عنه، كما وضعته هو على نفس القائمة عندما كانت بصحبتي، أي امرأة هذه! هل خُلق قلبها من لحمٍ ودمٍ كسائر البشر أم خُلق من حجارة لا تشقق ولا يخرج منها الماء!!

- وماذا فعلت معها يا أستاذ؟!

- قلت لها بسخرية وهل سيقبلني أبوكِ هذه المرة؟ قالت: بالطبع فأنت الآن نارٌ على علم، كل الناس تعرفك، وتعرف قدرك، والناس يستقبلونك في كل مكان بالحفاوة والترحاب، أما من الناحية المادية فأنت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأنا أيضا قد أخذت جميع مستحقاتي من طليقي، من مؤخرٍ ونفقة، فأصبح لدي المال الوفير.

- وماذا كان ردك عليها؟
- إني رأيتها جاءت تتمم صفقة، لم أستطع أن أرى شيئاً آخر، وهذه كانت أول مرة أرى شيئاً في وجودها، ففي حضورها كنت لا أرى ولا أسمع، كان حبي لها هو من يحركني، والآن لم أشعر نحوهها بأي شيء. إنها جاءت تسعى وراء المال والبنين، بعد أن أضحى مالُ المسكين بلا بنين، إنها تريد أن تملك كل شيء، وتسلب كل رجلٍ أحسن ما لديه وأقْيَم ما عنده، قديماً قد سلبت مني حباً لن تحظى بمثله ولو طافت جميع أنحاء الأرض، ثم تركتني وجرت وراء المال، فاغترفت منه غرفاً بيدها حتى شبعت، وجاءت تستزيد مني، وتكمل ناقصها بالأطفال، لذلك أدرت لها ظهري، وخرجت من عندي باكية كما جاءتني باكية من قبل، لم أهتم حينها أكانت تبكي أم تتباكى فما عاد يهمني من أمرها شيء.
- نعم التصرف يا سيدي.. إن ما فعلته هو عيْن العقل.
قالها يوسف ونظر إلى الأستاذ فوجده شارداً فصمت ولم يكمل، وعندما استعاد الأستاذ رشده، رأى في عينيّ يوسف نظرة مشفقة فأسرع قائلاً في غضب:
- لا.. لا تجعلني أندم على ما قصصته عليك، إياك وهذه النظرة، فأنا لا أحتملها ولا أقبلها.
فزع يوسف وقال:
- أي نظرة؟!
- نظرة الشفقة.. التي تلمع في عينيك
- لا والله فأنا...
قاطعه الأستاذ قائلا:
- قل لن أفعل ذلك ثانية، ولا تحلف.
- الأمر إليك يا سيدي، لن أفعل ذلك ثانية (قالها يوسف في امتثال)

- ها أنت ذا قد عرفت قصتي كاملة، فهل استفدت من تجارب العظماء؟! قالها بسخرية وتهكم
- بل أيقنت أن العظماء من صُنع الشدائد.
ابتسم الأستاذ مجدي ابتسامة يشوبها بعض الألم وقال:
- سيكون لك شأنٌ في الصحافة يا يوسف
- هذه الشهادة قد صنعت لي أكبر شأن
ضحك مجدي ولكن الضحكة مازالت غير صافية، وقال يوسف:
- معذرة يا سيدي، ولكن لماذا لم تفكر بعدها في الزواج وقد تعافيت من حبك القديم بإعراضك عنها حين عودتها؟!
- ما أصعب إجابة هذا السؤال!
- أهناك ما هو أصعب مما قيل!!
- إن كل ما قيل على مرارته وقسوته هو سردٌ لأحداث وقعت على مسرح حياتي، أما إجابة هذا السؤال فهي هواجس وأفكار تقع في قرارة نفسي، وحديثُ النفس للنفس ليس من السهل أن يُروَى لشخص، فمن الصعب صياغته في كلمات، وحتى إن استطعت ترجمته لكلمات مسموعة، فإن الكلمات تخترق جميع الآذان، ولا تمس إلا قلب صاحبها.
صمت يوسف وقد تغيرت ملامح وجهه، فهو لا يستطيع الإلحاح على الأستاذ أكثر من ذلك، وفي الوقت نفسه لابد له أن يعرف السبب الذي هو هنا من أجله، فأطرق فطال إطراقه وساد الصمت الذي قطعه الأستاذ مجدي قائلاً:
- أراك تعايشت مع قصتي حتى إنك تتشوق لمعرفة كل تفاصيلها، وعندما امتنعت عن التكملة ظهرعلى وجهك ضيق وكدر.
ابتسم يوسف ابتسامة فاقد الأمل ولم يجب.

استكمل الأستاذ حديثه بابتسامة:
- ماذا يضير إن تحدثت معك عما يجول في خاطري، إني قد بُحتُ لك بالكثير، سأكمل لك، وليكن ما يكون.
تهللت أسارير يوسف وقال:
- أشكرك كل الشكر يا أستاذ، إن ثقتك بي تاجٌ على رأسي
- ماذا تريد أن تعرف بالتحديد؟
- إجابة سؤالي يا أستاذ: لماذا لم تفكر في الزواج بعدها؟
- قلبي أبى أن يخفق مرةً أخرى.
- أمازلت تحبها؟!
أجاب في فزع:
- لا
- إذن ما السبب؟!
- لا أعرف، فليس لي عليه سلطان، وما أجبرته على الميل لها حتى أجبره على الميل لغيرها
- من هو؟
- قلبي
- وأين العقل؟
- موجود
- عظيم.. فليكن الزواج بالعقل
- حاولت.. ولم أستطع
- لماذا؟! هل ما زلت تبحث عن الحب؟!
- لا وألف لا.. لا أبحث عنه ولن أبحث عنه ولا أنتظره، (يتنهد) كفاني ما جنيت منه
- فما الذي يمنع زواج العقل إذن؟

- لا أخفيك سراً، إني قد حاولت وفكرت في البحث عن فتاة من عائلة محترمة تشاركني حياتي وتحقق لي حلم الأبوة الضائع.
- عظيم..
- ما العظيم في ذلك؟!
- التفكير بهذا الشكل
- وما فائدة التفكير مادام لم يعقبه تنفيذ؟!
- وما منع التنفيذ؟!
- هي
- من هي؟! (مستدركاً) أتقصد تلك الفتاة السبب في..
- نعم.. هي
- كيف يا أستاذ وأنت الذي قلت لي أنك لم تعد تحبها!!
- نعم.. لقد انتهى حبها من قلبي للأبد
- أنا لا أفهم شيئاً
- لا أعرف كيف أشرح لك! فكر قليلا ثم قال: أجبني عن هذا السؤال: تخيَّل أني كنت تقدمت لخطبة فتاة من أسرة محترمة هل كنت سأُقبَل أم كان سيوصد الباب في وجهي؟
- هذا سؤال لا يحتاج إلى إجابة، أي بيت وأي فتاة يرفضون أحدا مثلك يا سيدي؟

أشار الأستاذ بسبابته قائلاً:

- هو ذاك.. ذلك السبب الذي منعني من التقدم لخطبة أية فتاة خلقها الله
- كيف هذا؟! إني أفهم أن تخشى من الرفض، ولكن أن تخشى من القبول!!
- إني لا أخشى القبول فقط، بل أخافه.. أحذره، وأفزع منه
- لهذه الدرجة! لماذا يا سيدي؟!

- ستتكرر مأساتي لكن مع اختلاف الأدوار
- مازلت لا أفهم شيئاً
- هل تستطيع أن تخبرني ما السبب الذي ستقبلني تلك الفتاة من أجله؟
- أنت شخصية عامة مشهورة، كاتب كبير وصحفي مرموق، ومذيع محبوب، ميسور الحال، وسيم، ماذا يمكن أن أقول بعد ذلك؟!
- ها أنت قد أجبت بنفسك، ستقبلني تلك الفتاة من أجل مركزي، وشهرتي، ومالي، ليس من أجلي أنا. لأجد نفسي أصبحت ذلك الشاب الذي فتن حبيبتي قديماً، ورحبت به وأسرتها، عاشت معه من أجل ماله، لا من أجله هو، وعندما بدا فيه عيب، تركته بلا رحمة، كما تركتني بلا رحمة. أنا لا أستطيع الارتباط وأنا لا أشعر بالأمان، إن مَرِضت تُركْت، وإن ضاع مالي هُجرت، أريد من تقبلني لشخصي، لا لأي سبب آخر.
- وكيف لك أن تميِّز من تقبلك لشخصك؟!
- هذا هو المحال بعينه.. لو لم أكن شخصية عامة لادعيتُ الفقر والدعة لأعرف من تحبني أنا ممن تحب تلك الهالة المضيئة من حولي
- هي موجودة بالتأكيد من تحبك أنت، وكان من الممكن أن تعرفها لولا أنك تقدِّم سوء الظن دائماً
- أكنت تريدني بعد كل هذا أن أحسن الظن؟!
- إن سوء الظن يدمِّر أحياناً
- وحسن الظن يدمِّر دائماً
- يا أستاذ إنك قد نسيتها وتركت حبها ولكن أثرها ما زال ينخر داخل نفسك فيحطم كل جميل فيها
- أعترف أنها دمرتني

- ما كان يجب أن تتركها تحدث فيك كل هذا الأثر
- ليته بيدي
نظر يوسف إلى وجه الأستاذ البائس ولمعت في عينه دمعة، واستجمع شجاعته وقال:
- أتعرف يا أستاذ لو كنت مكانك ماذا كنت أفعل؟
- ماذا؟!
- كنت أذهب إلى طبيب نفسي
اعتدل الأستاذ في جلسته ونظر إلى يوسف في مفاجأة ولم يتكلم
- نعم يا أستاذ.. كنت ذهبت إليه حتى ينتزعها وحكايتها وأثرها من نفسي انتزاعاً.. كفاها أنها سرقت ما مضى من العمر، لا ينبغي أبداً أن تسرق ما تبقى.
ساد الصمت بعد هذا الكلام فلم يعقب الأستاذ على ما قد قيل، حتى قطع يوسف الصمت قائلاً:
- سامحني يا أستاذ أنا كنت أتحدث عن نفسي إذا كنت مكانك.. اغفر لي تطاولي أرجوك
- لا عليك
- إني قد أطلت عليك الحديث.
- لا أبدا قالها الأستاذ بصوتٍ منهكٍ حزينٍ
قال يوسف محاولاً استرضائه وطمأنته:
- إذا أردت ما نشرت شيئاً من حديثنا في الجريدة، حتى ذلك الحوار الذي سجلته معك في بداية اللقاء، إذا أردت ما ذكرت أني قابلتك قط.
- كيف؟!
- أذهب لشخصية أخرى أجري معها حواراً أنشره بدلاً من حوار سيادتك.

- افعل هذا
- لك ما تريد

ابتسم له الأستاذ وقال:

- شكراً لك
- بل أنا الذي أشكرك يا أستاذ على وقتك وثقتك وهذا الوقت الممتع في صحبتك، كما أعتذر لك أيضاً أني تسببت لك في تجديد جرح قديم، واستدعاء ذكريات مؤلمة. شكرا لك يا سيدي ومعذرة. اسمح لي بالانصراف
- تفضل

ملاك بين البشر

كان يوماً هادئاً جميل الطقس معتدل الحرارة. النسيم عليل، والجو يشرح الصدر، كل شيء يبدو على ما يرام حين قرر يوسف زيارة الاسم الرابع في كشف الأسماء: الأستاذ محمد المالكي.. كان الأستاذ محمد رجلاً ناضجاً وسيماً، في التاسعة والثلاثين من عمره، أبيض البشرة، طويل القامة، حسن المظهر، رفيع الذوق. ذهب يوسف إلى مكتبه ليحدد موعداً وإذا به يدخل للأستاذ في نفس اليوم، دون موعد سابق.. "تفضل فالأستاذ دائما يرحب بالصحفيين الشباب ويتبناهم".. هذا ما قالته السكرتيرة ليوسف بعد أن دخلت مكتب الأستاذ وأبلغته بحضورصحفي شاب للقائه. لم يصدق يوسف أذنيه في البداية، لكن عندما خطت قدماه أول خطوة داخل مكتب الأستاذ زادت دهشته من حسن استقبال الرجل الذي يستقبله استقبال الأب رغم أن فارق العمر بينهما لا يتجاوز عشر سنوات، تلقَّاه بوجهٍ باشٍّ وثغر باسم، وعينين صافيتين، إذا أمعنت النظر فيهما رأيت خيال كدرٍ مستتر. كان الرجل هادئاً مريحاً يتحدث عن نفسه بطلاقة وصراحة تشجعان من يتحدث إليه أن يُخرج كل ما في جعبته من كلمات وأحاسيس ومخاوف أيضاً، وأن يطلق لنفسه العنان حتى تكشف عن مكنونها. لم يشعر يوسف بنفسه إلا وهو يعترف أمامه بحقيقة مجيئه إليه دون أن يوَّجِه إليه أسئلتة المعتادة أو يجري معه حواراً، أو يستتر بعمله كصحفي ليسأل سؤاله المعهود، فجأة وجد نفسه يشرح له كل شيء عن فكرته وتجربته، حتى إنه قصَّ عليه ما دار بينه وبين الأدباء الثلاثة. أثار حديث يوسف دهشة الأستاذ وإعجابه أيضا، في البداية أثنى على نُبْل المبادرة،

وحماس يوسف ورغبته الشديدة في الإصلاح، واهتمامه بأحوال المجتمع والسعي لاستئصال تلك الأمراض التي أصابته، ومحاربة الأوبئة الأخلاقية التي تفشَّت فيه. أحسنت إذ أردت تغيير المنكر بيدك قبل لسانك وقلبك (هكذا قال الأستاذ) أضاءت على وجه يوسف ابتسامة، وقال بصوت تمتزج فيه نغمات الفرح والانتصار:

- أخيراً.. وجدتُ من يؤمن بفكرتي ويبارك تجربتي

قال الأستاذ محمد بصراحته المعهودة:

- نعم.. أنا أؤمن بفكرتك ولكن لا أبارك تجربتك

- كيف هذا؟! ألم تقل أني صاحب مبادرة نبيلة وفريدة من نوعها؟! (قالها يوسف وقد خفتت نغمات الفرح في صوته)

- بلى قلت.. بل وقصدت ما قلت، هي مبادرة نبيلة أن تفكر في تحسين أحوال الناس في المجتمع، وأن تسعى لإنشاء جيل جديد متعلم ومثقف وقبل كل هذا مهذَّب وهو ما افتقدناه هذه الأيام في مجتمعنا المنكوب. النظرية سليمة لكن التطبيق ينتابه بعض الخلل.

- خلل!

- نعم.. أتحسب بحصرك أعداد مثقفي البلد والذهاب إليهم واحداً تلو الآخر لتقنعهم بالإقبال على الزواج والإنجاب ستقوم بتحويل المجتمع إلى جنة خضراء، الناس فيها لهم أجنحة الملائكة!!

- بالطبع لن يحدث هذا بين يومٍ وليلة (قال يوسف مسرعاً)

- يا يوسف.. إن لك حلماً جميلاً، ولكنك قد بالغت في الحلم حتى انفصل بك عن الواقع، وأفقدك القدرة على التحليل والتفكير السليم. إن هذا المشروع أو التجربة كما سميتها تحتاج أولا إلى دراسة نظرية دقيقة ووافية تقيس مدى صلاحيتها للتطبيق على أرض الواقع، فهل

قمت بعمل هذه الدراسة قبل أن تذهب لتجري حوارات مع كبار الأدباء؟

- بالطبع.. فأنا أدرس هذا الموضوع منذ فترة

- رائع.. إذن تستطيع أن تجيبني عن بعض الأسئلة من واقع دراستك للتجربة!

- بالطبع

- قل لي كم عدد الأدباء والمثقفين -وغيرهم ممن تستهدفهم تجربتك- في البلد؟

- لا أعرف.. إني لم أقم بحصرهم جميعاً

- وعلى أي أساس بدأت التطبيق؟!

- إني فضلت أن أبدأ بالمشهورين منهم والمعروفين لي في الوسط الأدبي والصحفي

- وكم عدد أولئك المشهورين بالنسبة لباقي المجتمع؟!

- لا شيء يذكر، ولكن هناك العديد من المثقفين من غير المشهورين

- أتفق معك تماماً، ولكن كيف لك أن تعرفهم؟! وإذا عرفت بعضاً منهم كيف لك أن تحصيهم عدداً؟! وإذا أحصيت عددهم كيف لك أن تذهب إليهم فرداً فرداً، وتحاول إقناع كل واحدٍ منهم على حدة في شتى أنحاء الجمهورية؟! ولو افترضنا أن لديك قدرات خارقة، أو حتى إنك استعنت معك بمساعدين واستطعت أن تصل إلي كل واحدٍ منهم.. كم منهم سيستجيب إليك؟!

أطرق يوسف طويلاً

- أتمنى أن تكون رسالتي قد وصلتك

تنبَّه يوسف قليلاً كمن أفاق من غفوة وقال:

- وصلتني رسالتك، وفهمت قصدك، ولكن هي خطوة أحاول بها، حتى وإن كانت على أضيق نطاق، ولكنها ترفع عني الحرج أمام نفسي، وأنا أستنكر كل منكر دون أن أحاول تغييره حتى مجرد المحاولة.
- سبق أن قلت لك أن المبادرة نبيلة، ولكن إذا أردت جَنْي ثمارها لابد أن تتبع نهجاً أكثر إيجابية وأعظم تأثيراً. إن زواج المثقفين ليس حلا للمشكلة مادام الفقر والجهل يتفشيان في المجتمع، وينخران بنيانه كما ينخر السوس الخشب. فيجب القضاء عليهما أولاً قبل أي شيء. إن التعليم أساس التحضُّر لأي مجتمع، وإن كنت أقصد التعليم بمفهومه الذي نشأنا عليه، لا بمفهوم هذه الأيام، التي يعتبر الناس فيها التعليم هو حصول الفرد على شهادة تعليمية بأي طريقة كانت، هل انتفع بما تعلمه أم لا هذا لا يهم.. المهم أنه قد حصل على شهادة تعليمية رفيعة المستوى. دعني أتتبع معك المشكلات التي حصرتها للتو في المجتمع، فلنبدأ بأولئك الأطفال الذين تراهم في الشوارع والمدارس وتستنكر سلوكياتهم، هؤلاء الأطفال إذا أحسنّا تربيتهم وتعليمهم سيغيرون وجه المجتمع الذي نشكو منه جميعاً. إذا تعلموا في المدارس بأحدث الأساليب التربوية وإذا زرع فيهم معلموهم كيف يحبون القراءة ويستزيدون من العلم صار مجتمعك كله من المثقفين. وهؤلاء الأهالي الذين يربون في أبنائهم مشكلاتٍ نفسية لماذا لا يتم عمل مراكز تربوية متخصصة في أساليب التربية والصحة النفسية وتعديل السلوك تكون مُعدَّة خصيصاً للآباء والأمهات، تقدم لهم التوعية والاستشارات اللازمة بالمجان، كما يجب توسيع دائرة محو الأمية لتشمل شتى أنحاء الجمهورية.
- ولكن تلك الحلول تستغرق سنوات

- هذا صحيح.. لأنها مسائل شائكة ومتشعبة، وتحتاج إلى مساهمة العديد من الأطراف لتنفيذ تلك الحلول، بداية من المواطن البسيط إلى أعلى مسؤول في الدولة، مع العلم أن الحل طويل المدى، والثمار لن تُجنى إلا بعد العديد من السنوات.

- ولِم لا أستكمل أنا ما بدأت حتى تتيسر تلك الحلول طويلة الأجل؟!

- تستكمل ماذا؟! رحلاتك إلى المثقفين!! إن المثقفين الذين تحمل همهم يا يوسف إنما هم مضربون بمحض إرادتهم لا يمنعهم فقرٌ ولا مرض، وعلى الجانب الآخر هناك العديد من الشباب من خريجي الجامعات -من هم على خُلق عظيم وعلى قدر كبير من الوعي والثقافة- مضربون أيضا عن الزواج ولكنهم مرغمون على الإضراب، فالفقر وضيق ذات اليد يحول بينهم وبين توفير ما يلزم للزواج من نفقات، خاصة في ظل هذا الغلاء الفاحش الذي يدهم الأسعار كما يدهم السيل الرُبى. كما أنه الفقر الذي يحول بين أطفال الأسر المعدومة وبين التعليم. إن مسببات هذه الظاهرة التي أزعجتك كثيرة وخطيرة، إضراب المثقفين عن الزواج هو أكثرها رفاهية.

أطرق يوسف مرةً ثانية ولم يعرف ماذا يقول، لكنه رغم عجز لسانه عن الرد إلا أن الفكرة مازالت تسيطر عليه بقوة، إنه قد اقتنع بكلام محمد المالكي ومنطقه، ولكنه لم يتعود أن يتنازل عن قناعة بسهولة، ولا التخلي عن فكرة خطرت له خاصة إذا كانت قد ملكت عليه لبّه كما فعلت تلك الفكرة اللعينة التي لا تبرح رأسه.

سُبات عميق

بدأ الرجل الصالح بنفسه، وطفق يكتب المقال تلو الآخر يحث فيها على محو الأمية، وتوعية الأهالي، والمطالبة بإنشاء المراكز التربوية التي تساعد الأهالي على تربية أبنائهم تربية سوية، كما اهتم بنشر تلك المقالات في مواقع التواصل، ولم يدَّخر وقتاً أو جهداً في رفع لواء تلك القضية وحث جميع من يهمه الأمر على المشاركة والمساعدة، كما نادى بها في بعض البرامج التليفزيونية، ولكن كالعادة في مجتمعاتنا لا حياة لمن تنادي، فالناس مشغولون بأخبار النجوم وأسرار المشاهير، وفضائح الناس، تلك هي المنشورات التي تُقرأ، والمقاطع التي تُشاهد، إن الناس قد أضحوا في سُباتٍ عميق، فقد ضُرب على آذانهم سنين عددا. كم طال انتظار تلك الصحوة التي يتغير بها وجه الدنيا! لكن الغفوة طالت أيضا، إنها غفوةً فاقت غفوة أهل الكهف في مدتها، وليتها كانت في قدسيتها. وكان يوسف يتابع هذه المجهودات من قِبل الأستاذ محمد ويُثني عليها رغم عدم اقتناعه بأن هذه الطريقة قد تجني أية ثمار، لكن الأستاذ محمد كان يقول له: هذا ما في يدي فعله، لا أملك سوى قلمي. أما عن يوسف فقد أصبح اليوم له شأن آخر فقد اتخذه الأستاذ خليلاً.. يصحبه في كل مكان، ويلازمه في كل سهرة، فتح له كل الأبواب التي لم يحلم يوسف يوما أن يمر أمامها، فقد عرَّفه بكبار الأدباء والصحفيين، وكان يحضر معه الندوات والمؤتمرات، كما كان يصحبه في جلسات السمر مع أصدقائه من رفيعي الشأن في المجتمع، فيستمع إلى حديثهم الممتع الذي طالما أفاده وأضاف إلى خبرته خبرات عديدة. لقد وجد يوسف نفسه في عالم آخر بين يومٍ وليلة.. عالم طالما حلم

به، ورغم أنه كان متيقناً من تحقيق حلمه يوماً ما، لكن علاقته القوية بمحمد المالكي قد اختصرت السنين والمسافات. وأصبح يوسف موضع حسد لجميع أقرانه. إن صداقة هذا الرجل من أعظم المكاسب التي اغتنمها يوسف في حياته، هذا الرجل المرموق المتعاون الطيب، الذي لا يتوانى عن مساعدة من يشعر-ولو من بعيد– أنه يحتاج إلى المساعدة. لم ينل يوسف من صداقة المالكي ترقية بالجريدة التي يعمل بها، أو حتى عمل بجريدة أخرى أفضل، فالأستاذ يكره الوساطة، والمحسوبية، فهو مثالي ككتاباته أو أشد مثالية، ويؤمن أن الكفاءات تفرض نفسها دون وساطة أو توصية. قالها ليوسف صريحة ذات يوم: لن أبخل عليك بنصيحة أو معلومة، وسأساعدك في صقل موهبتك الصحفية، وتنمية خبراتك، وأساعدك كي تكون صحفياً ناجحاً متميزاً ولا أعتقد أنك تحتاج أكثر من ذلك لتكون مهارتك هي واسطتك، وكفاءتك هي التي توصي بك وتفرضك على الجميع. وكان يوسف راضياً قانعاً، فما يتعلمه من محمد المالكي في يوم ما كان ليتعلمه في سنوات، ومر الشهر تلو الشهر، ويوسف يدور في فلكه مرحاً سعيداً، فمع الأستاذ هناك دائما جديد، الخطوات أسرع، والطموحات والأحلام توشك أن تصبح حقيقة.

وذات ليلة استضافه الأستاذ محمد في منزله الهادىء الأنيق، الذي تكاد تسمع فيه صوت سقوط الإبرة على الأرض من شدة الهدوء، وأثناء تلك الاستضافة الرائعة، والجلسة اللطيفة قال يوسف:

- لك أن تتخيل يا أستاذ أني قابلت عددا من الأدباء - لم أعرفهم سوى معرفة سطحية – ولكني عرفت سبب إضراب كل منهم عن الزواج، وأنا على معرفتي القوية بك لم أعرف حتى الآن سبب إضرابك عن الزواج، ولا خطر لي أن أسألك هذا السؤال من قبل!

ابتسم الأستاذ ابتسامة ساخرة ثم قال:
- أما زالت تلك الفكرة تسيطرعليك؟!
- حاولت كثيرا أن أعدل عنها، ولكنها هي التي لا تريد أن تعدل عني!
أومأ برأسه يميناً ويساراً ثم قال:
- إنك مصاب بداء العناد.
- أنا فقط لا أحب الفشل
- ومن يحب الفشل؟!
- أقصد أني إذا وضعت هدفاً أمامي لا أبرح حتى أبلغه
- عظيم.. هذا هو الطموح. لكن بعض الأهداف يكشف الزمن عن عدم جدواها أو احتياجها لبعض التعديلات
- ولكني إذا حددت هدفي من البداية، لا أقبل فيه تعديلاً
يشير إليه بإصبعه:
- وهذا هو العناد
مغيراً مجرى الحديث:
- يا أستاذ.. إنك لم تجبني بعد..
- عن أي شيء أجيبك؟!
- لماذا لم تتزوج حتى الآن، وأنت رجل لا عيب فيه ولا نقيصة، تسعى إليك الفتيات، وتتهافت عليك المعجبات، وتحلم بك كل فاتنة؟!
- ضحك الأستاذ ضحكة خجولة جميلة وقال:
- كل فاتنة! شكرا لك
- يا أستاذ.. أنا لست لك مجاملاً، بل هي الحقيقة الكاملة، هلا أجبتني عن سؤالي إذن.. ما هو سر إضرابك عن الزواج؟!
- أنا لست مضرباً يا يوسف.. بل أنا منتظر.
- منتظر!

- نعم
- وأي شيء تنتظر؟!
- أنتظرها هي
- من هي؟
تنهد تنهيدة حارة:
- تلك الساحرة التي تسرق سمعي وبصري، تستحوذ على عقلي وقلبي، تسلبني إرادتي.
صمت يوسف واستدرك الأستاذ وهو يتطلع إلى السماء كالحالم:
- تلك التي أحلم بها في صحوي ونومي، أعرفها جيداً ولم أرها قط، إنها جميلة رشيقة ذكية مثقفة حالمة، تاركة بصمتها في كل تفاصيل حياتي، إني دوما أتخيلها تشاركني كل شيء، تربط لي رابطة عنقي، تضع لي الطعام في فمي، حتى عندما أنظر إلى المرآة أراها تقف إلى جواري.
- إنك تحب فتاة بعينها.
هز محمد رأسه نافياً
- هي إذن فتاة الأحلام.. ولكنك تصفها وصفاً دقيقاً ينم عن سابق معرفة! (قالها يوسف في دهشة)
- نعم.. فطالما حلمت بها وتخيلتها، وسرنا معا في ليل طويل نتسامر، كم أفضيت إليها بما يؤرقني، وكم قصصت عليها مشاكل العمل، وطلبت منها الرأي والمشورة.
(نظر يوسف إليه مذهولاً في صمت)
- لماذا تنظر إلي هكذا؟ أيخيل إليك أني مجنون؟!
- عفوا يا أستاذ.. كلا بالطبع.. أنا فقط مندهش
- لا تندهش.. فأنا وحيد في هذه الدنيا.. أليس من حق الوحيد أن يتحدث إلى أحد؟! أن يركن لشخص ترتاح إليه نفسه؟! يقال إن الحاجة

أم الاختراع، إن حاجة الوحيد -مثلي- إلى أنيس تجعله يخلقه بيديه.. يتصوره بعقله.. يحسه بقلبه.. حتى لا يشعر مجرد شعور أنه يتحدث إلى نفسه وأنه أضحى على حافة الجنون.

- ولكنك يا أستاذ لست وحيداً، فأنا أعرفك منذ فترة طويلة، وحياتك مليئة بالزملاء والأصدقاء والمحبين.

ابتسم محمد ابتسامة ساخرة وقال:

- جميع الناس تحسدني على كثرة المحيطين بي، ومن بين هذا العدد الجم من الملتفين حولي لا يوجد بينهم صديق واحد.. صديق بمعنى كلمة صديق بكل ما تحمله هذه الكلمة من دفء وأمان وحب والتزام ووفاء.

- هذا غير معقول

- إن الحقيقة هي أكثر الأشياء اللامعقولة.

- ولكن لماذا يا أستاذ تصبر على هذه الوحدة المرة؟

- من قال لك أنها مرة، ربما كانت كذلك سابقاً، إنما في الوقت الحالي ألفتها وتعودت عليها، بل صرنا أصدقاء.

- ولكني أراك تتجاوزها بصعوبة.. لماذا تتخيل فتاتك ولا تبحث عنها؟!

- أبحث عنها! لقد بحثت عنها في كل مكان، ولكن يبدو أنها موجودة في نصف الكرة الآخر.. هذا إن وجدت.

- حدثني عن مواصفاتها، ربما عثرت لك أنا عليها وأتيتك بها كما جاء الهدهد بنبأ بلقيس.

- هذا أسخف شيء سمعته منك منذ معرفتي بك يا يوسف

انتبه يوسف منزعجاً:

- لم يا أستاذ؟

- كل من يسأل عن تلك المواصفات فهو أحمق.

- أحمق!
- بالطبع.. فلابد أن كل إنسان يريد في شريكه الجميل من الصفات والنبيل من الطبائع، فلن أريدها سليطة اللسان مثلا!
- معك حق يا أستاذ، لكنه سؤال اعتدنا أن نسمعه ونردده؛ ومع ذلك لابد أن هناك صفة معينة تبحث عنها في فتاتك.. أقصد فتاة أحلامك.. صفة تعنيك وحدك ليست ككل الصفات الحسنة التي ذكرتها.
- إني لا أريد أن أبحث عنها، بل أريد أن تبحث هي عني، تقتحم حياتي دون استئذان، تخطفني من كل شيء، تسحرني، تجعلني شاخص البصر إليها، لا أبغي عنها حولا. ليس من الضروري أن تكون فاتنة الجمال، فالسحر ليس في الجمال وحده.
- ألم تجدها في هذا العدد الهائل من المعجبات؟
- إني لا أرى المعجبات، لا أنظر إليهم.. فقط أتبادل معهم العبارات اللطيفة والمجاملات المألوفة.
- لماذا؟ فربما وجدت ضالتك فيهن؟!
- لا.. لم ولن أجدها فيهن.
- أتعتقد أنها لن تكون من المعجبات بك؟! (قال يوسف ضاحكاً)
- لا أقصد هذا.. ولكن المعجبات يتهافتن عليّ من كل حدبٍ وصوب يطلبن عريساً، أديب كبير، وصحفي لامع، وشخصية مشهورة، هذا ما يرونه في، إنهن يأتين للقنص، وأنا أنفر من القنص.
- اسمح لي يا أستاذ أن أقول لك إن ثقافتك الواسعة وحسك المرهف قد سببا لك شقاءً وتعاسة. إن آلاف الشباب يتزوجون دون تلك الاعتبارات الشائكة شديدة الحساسية، مساكين هم الأدباء والمثقفون حقا.

قال محمد مغيرا سياق الحديث:

- ها قد أجبت على سؤالك، أرجو إذن ألا نناقش هذا الموضوع ثانية
قال يوسف رافعاً ذراعه:
- أعدك يا أستاذ.. وأستأذن للانصراف
خرج وترك الأستاذ محمد في منزله وحيدا، وقد خلَّف حديثه مع يوسف في نفسه ألماً وفي حلقه مرارة، وفي عينيه دمعة مختنقة أبت أن تسقط إلا بعدما غادر يوسف، فقد أثار في نفسه شوقاً عاش يغالبه، وأشعل في قلبه نيراناً قد عانى وهو يحاول إخمادها، فهو منذ فترة وهو قانع بحياته يحاول أن يسعد بها كما هي – وإن كانت دوما سعادة ناقصة – لكنه كان يحاول أن يحيا يومه ويستمتع فيه بالمتاح، قد نسي أو تناسى حلم فتاة الأحلام، والعش الهادىء، والبيت الدافىء المستقر الجميل، كل هذا قد تناساه ليستطيع أن يكمل حياته في هدوء ودون منغصات. وها هو يوسف قد لامس الجرح الحي لمسة ألهبته، وصفق ألمها في ضلوعه. الليلة والليلة فقط شعر أن فتاته التي يبحث عنها قد أبطأته، حتى أنه لا يستطيع أن يقضي هذه الليلة دونها، وهو الذي قضى السنوات الطوال دون أن يشعر مثل هذا الشعور. إنه كان قد يئس من العثور عليها، وأيقن باستحالة وجودها فأراح واستراح، فكيف ضاق صدره، ونفذ صبره في لحظات حتى أنه يريد أن يضرب الأرض بقدميه باكياً كي تحضر. كيف داخله هذا الشعور الطفولي؟! كم هو الآن بحاجة لرصاصة اليأس الرحيمة، لكن اليأس أيضاً قد أبطأه كما أبطأه الأمل والصبر
- أي لعنة أرسلتك إليّ الليلة يا يوسف؟! قالها بحنق شديد واتجه إلى سريره هرباً من تلك الأفكار المؤلمة، ولكن النوم قد جافاه، والدمع الهارب من عينيه قد أيقظ جفنيه طول الليل.

لحظة عناد

استيقظ يوسف على مكالمة تليفونية تلقى فيها توبيخاً وعتاباً من صديقه يحيى بسبب اختفائه غير المبرر وعدم السؤال عنه، لكن يوسف امتص غضبه، ووعده أن يلتقي به ليلاً في المقهى، ولما جاءه وقص عليه القصص قال يحيى لائماً حَانِقاً:

- آه.. الآن فهمت.. هذا هو سبب اختفائك إذن! الأستاذ المالكي.. الذي ذهبت إليه محاوراً فأصبحت له صديقاً، تذهب معه أينما ذهب، وتجلس أينما جلس. لديك كل الحق ألا تسأل عني، فأين أنا من الأستاذ المالكي!! الصحفي الكبير، والإعلامي المشهور!! (واستطرد ساخراً): وما النفع من معرفتي؟! والطائل من صداقتي.. لا شيء. طالما عرفتك محباً لذاتك، تفضلها على كل شيء، لكن ما كنت أحسب أن هذا ينطبق عليَّ أنا! كنت أحسبني شيئاً آخر.. كنت أرى أننا شخص واحد لا اثنين، ولكن...

قاطعه يوسف:

- ما كل هذا يا صديقي؟! الآن تحصي عيوبي وتعدها!! منذ متى ونحن كذلك؟! أكل هذا من أجل عدة شهور انشغلت فيها عنك؟! فلماذا لم تسأل أنت عني طيلة هذه الشهور؟! فما يدريك ربما أصابني مكروه أو أكون قد تركت الدنيا وما فيها! لكني لم أعاتبك على هذا ولن أعاتبك، إن صداقتنا منذ بداية عهدها لم تتأثر يوماً ببعدٍ أو قرب، وما تقصينا يوماً من منا بادر بالسؤال عن الآخر، وما زالت صداقتنا باقية لأن أحداً

منا لم يُجر مع الآخر تحقيقاً، ولم ينصب له محكمة، إن صداقتنا كانت دائماً هينة لينة، وهذا سر بقائها.
هدأت ثائرة يحيى، وقال بلين:
- ما عاتبتك إلا لحبي لك وحرصي عليك
وقال يوسف:
- وأنا لم أقل لك ما قلت إلا للسبب نفسه
تعانق الصديقان ونسيا ما قد كان، وبدأ كل منهما يحكي للآخر ما دار معه خلال الشهور الماضية، وقال يحيى:
- إذن تأكدت أخيراً من عدم جدوى فكرتك
- من قال لك هذا؟
- ما قصصته عليّ للتوّ.. ألم تقل أنك الآن بصحبة الصحفي الكبير وأنك تتعلم منه كل يوم شيئاً جديداً، وأن أيامك كلها قد أصبحت مزدحمة للغاية، ولا تجد وقت فراغ!
- نعم قلت ذلك كله، فما الذي يدل فيما قلته على فشل تجربتي أو عدم جدواها؟!
- ليس من الضروري أن تقول، فكل محاولاتك قد باءت بالفشل، حتى ذلك الرجل النبيل لم تفلح في إقناعه، وهذا أكبر دليل على صدق كلامي من البداية، وأنها نظرية غير قابلة للتطبيق.
- لا.. هذا لا يعني أنك على حق، ولا أن تجربتي قد باءت بالفشل، (استطرد يوسف مكابراً) ولكن الأمر كله يتعلق بهدنة أخذتها، ثم أعود لاستكمال ما بدأت.
- تستكمل ماذا؟! إن ما أعددت بالكشف من أسماء قد انتهى ولم تحظَ منه بطائل.

- مسكينٌ أنت.. أتعتقد أن الخمسة أسماء الذين أعددتهم هم كل هدفي؟! بل عندما أنتهي منهم سأعدُّ العديد من الأسماء الأخرى، ومع ذلك الكشف الأول لم ينتهِ بعد، فما زال هناك اسم متبقي، (يخرج يوسف الورقة من جيبه) ها هي الورقة، مازلت محتفظاً بها، أنقلها من سروالٍ إلى آخر، على أمل أن أستأنف يوماً ما.
- أمازلت تحتفظ بها كل هذا الوقت؟! إنها قد هرمت وأوشكت أن تتمزق!
- لا.. لن تتمزق، فقد قررت الاستئناف غداً (قالها يوسف في عناد ملحوظ)
- غداً!
- (بإصرار): نعم
- وما هو الاسم المتبقي في هذه الورقة الذائبة؟!
فكر يوسف قليلا ثم قال:
- تصور أني نسيته
فتح يوسف الورقة ونظر إلى الاسم فإذا به يضرب هامته براحة يده ويقول:
- يا إلهي! نيرة مراد!!
- ماذا بك؟
- تخيل أني لم أفطن سوى الآن أني كتبت اسمها في الكشف
- وماذا في هذا؟!
- إني عندما كتبت اسمها كنت لا أعرف عنها شيئاً، ولكن بعدما حضرت جلسات الأستاذ محمد مع زملائه وأصدقائه دارت الكثير من الأحاديث عنها، وقد أجمعوا على أنها شخصية شديدة الحساسية، سريعة

الغضب، ولابد من انتقاء كل كلمة تنطق بها أمامها حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه

- الأمر شديد البساطة.. ابحث لها عن بديل..

- ولماذا أبحث لها عن بديل وأنا قادرٌ على التعامل مع من هم أصعب منها شخصية وأحدُّ طباعاً!! فإذا كنت أنا أهرب من التعامل مع مثلها فمن إذن يتقدم ويواجه!!

- سيقتلك غرورك

قال يوسف ضاحكاً:

- بل هي ثقة بالنفس ولكنها زائدة بعض الشيء

- بعض الشيء!!

- أعرف أنك تراني مغروراً

- مغروراً عنيداً، تصرعلى الخطأ لمجرد ألا تعترف به أو تتراجع عنه.

- أكُل ذلك أنا؟!!!

- نعم كل ذلك أنت.

غلطة الشاطر

دقت العاشرة صباحا، ويوسف جالس في مكتب الأستاذة نيرة مراد في الموعد المحدد سابقاً، تبدو أصغر سنا من عمرها، رقيقة الملامح، لها قصة شعر مميزة، ترتدي نظارة طبية لم تستطع أن تخفي الإرادة والإصرار الواضحين في عينيها. وجدت يوسف صامتاً فبادرته مداعبة بروحها المرحة:

- لماذا أنت صامت هكذا؟ هل تنتظر أن أجري معك أنا الحوار؟!

ابتسم يوسف وقال:

- العفو يا فندم.. ولكني انتظرت الإذن بالحديث

كان يتعامل معها بمنتهى الحذر لما سمعه عن سرعة انفعالها

- يبدو أنك صحفي مهذب، ليس كمن نلقاهم في هذه الأيام الغريبة

وجدها يوسف فرصة ذهبية للدخول مباشرة في الموضوع دون أن يسهب في الحديث مع هذه المرأة شديدة الحساسية سريعة الغضب

- بالضبط.. هذا هو موضوعي.. تلك الأيام الغريبة، وما نراه فيها من نقص في التربية وقلة في الذوق. وأبدأ أسئلتي عن هذا الأمر.. ما رأي حضرتك في هذه الظاهرة، وأين هم المثقفون والأدباء منها؟!

وتبادلا أطراف الحديث، وكان كلام الأستاذة نيرة يدل على وعيها وثقافتها غير المحدودة، كانت تجيب يوسف على جميع أسئلته دون ضيق أو تعالي، حتى حان وقت ذلك السؤال اللعين، كيف له أن يجرؤ ويسأل مثلها – وبعد ما عرفه عنها- مثل هذا السؤال؟! لكنه استجمع كل ما يملك من شجاعة، وقال لنفسه فليحدث ما يحدث، وبادر بحذر وتلعثم:

- أستاذة نيرة هل لي أن أسألك سؤالاً شخصياً إن شئت نشرته وإن شئت حذفته
- مادام سؤالا شخصيا فلا أفضل نشره. وإن كنت أعرف سؤالك قبل أن تسأله، وسأجيبك عليه.
- كيف يا سيدتي وسؤالي داخل عقلي، لم أكتبه حتى في ورق.
- ألست تريد أن تسأل لماذا لم أتزوج حتى الآن؟
- نعم.. بالضبط، لكن.. معذرة.. كيف عرفتي؟!
- ما من سؤال شخصي يوجه إليَّ غير هذا السؤال، تعبت منه ومن الإجابة عليه
- ولكني تابعت كل أحاديثك يا أستاذة ولو وجدت فيها هذا السؤال ما كررته عليك الآن. (همس محدثاً نفسه): بل ما كنت جئت إليك من الأساس.
- لم تجده لأني ما أجبت أحداً عليه، فأنا أرفض أن ينشر أي شيء عن حياتي الشخصية.

أطرق يوسف ولم يجب، وكان كلما تحدث إليها اكتشف أن طبعها وصفاتها تناقض تماما ما يقال عنها، فهي جميلة رقيقة هادئة الطبع، فقد رحبت به واحتوته وهو بالنسبة إليها صحفي مغمور ليس له شأن، إنها أولته اهتماما يحظى به كبار الصحفيين، وكانت في حديثها واسعة الأفق رحبة الصدر، لابد أن ما يتردد عنها محض إشاعات.

- ماهذا؟! أيليق بالصحفي أن يشرد أثناء إجراء حوار؟!
- عفوا يا أستاذة.. معذرة، لقد تبادر إلى سمعي أنك ستجيبين على سؤالي فهل حقا ما سمعت؟
- نعم.. فأنت صحفي مهذب تحترم آداب المهنة، ولذلك سأجيب على سؤالك.. لكن مع عدم النشر

- بالطبع يا سيدتي.. مفهوم
- أنا لم أتزوج حتى الآن لأني لم أجد الشخص المناسب، ذلك الشخص المثقف المتفتح المتفهم، شخص يُعتمد عليه، يجمع بين الرومانسية والواقعية، فلا هو حالمٌ منفصل عن الواقع، ولا عنيف قاسي لا يرق قلبه ولكن ما بين ذلك وذاك، شخص سوي متزن، صفات كثيرة أبحث عنها يا يوسف قلما تجتمع في رجل واحد هذه الأيام.

ما إن أنهت حديثها حتى تسارعت دقات قلب يوسف بسبب صوت هتف في رأسه: الأستاذ.. هي تصف الأستاذ محمد المالكي.. هو بعينه لا أحد غيره، وهي.. هي تشبه كثيرا فتاة أحلامه، كيف لم يلتقوا قبل ذلك وهم زملاء في نفس المهنة، وكل منهما يبحث عن الآخر، ويكأن القدر قد أرسلني لهذا.. جئت أنا لأصل كل منهما بالآخر، جئت لأقنعهما فقط بالزواج، ويبدو أني سأزوجهما بالفعل.. يالها من فرصة ذهبية!

واندفع يوسف دون لحظة تفكير واحدة:

- بل اجتمعت في رجلٍ واحد، و ينتظرك كما تنتظرينه، رجل فيه كل ما تتمنين من الصفات وأكثر.. أكثر بكثير.
- ماذا تقول؟!
- إنكما أبناء نفس المهنة، تحيون في عين الزمن، وكل منكما ضل طريق صاحبه.

خالجها بعض الشك أنه يقصد نفسه فسألته بحدة:

- من تقصد أيها الرجل؟
- أقصد الأستاذ الكبير والصحفي المرموق محمد المالكي
- من؟! (قالت بفزع)

استكمل غير سامع ما تقول:

- إنك فتاة أحلامه التي ينتظرها، يبدو أن أبواب السماء كانت مفتوحة عندما قلت له سأعود بها إليك كما عاد الهدهد بنبإ بلقيس
- تعود إليه؟! أهو من أرسلك إليَّ؟! هي تمثيلية إذن! فأنت لست صحفياً ولا جئت تجري حواراً.

وهنا ظهر الوجه الآخر لنيرة مراد الذي سمع عنه مسبقا، فقد ثارت ثائرة الأستاذة، وضربت بكفها المكتب ضربة عنيفة أفزعت يوسف، كاد دوي صوتها أن يزلزل الأرض تحت قدميه، وتحولت فجأة من الرقة والوداعة إلى الحدة والعنف. فزع يوسف وأسرع قائلاً:

- كلا.. هناك سوء فهم
- لا تنطق بحرف
- أرجوكِ اسمعيني..
- اخرج في الحال
- إن الأستاذ مظلوم.. هو لم يعرف أن....

قاطعته:

- إذا لم تخرج حالاً أحضرت من يلقي بك في الخارج

خرج يوسف بعد أن فقد الأمل في تصحيح هذا الموقف السخيف، وترك الأستاذة تستشيط غضباً، وفور خروجه طلبت أحد أصدقائها في الهاتف ليرسل إليها رقم تليفون الأستاذ محمد المالكي على عجل.

.....

تلقى الأستاذ محمد المالكي مكالمة تليفونية من رقم مجهول:

- مساء الخير
- حضرتك الأستاذ محمد المالكي؟
- نعم.. من المتحدث؟

- ألا تعرف رقمي؟
- لا.. والله
- إذن فلم أرسلت إليّ؟
- أرسلت إليكِ ماذا؟
- أنا نيرة مراد يا أستاذ
- أهلا يا أستاذة.. مرحبا بك
- لا أهلا ولا سهلا.. كيف يليق باسمك الكبير ومكانتك العليا أن تقترف تلك الأفعال الصبيانية؟!
- ماذا؟ كيف تجرؤين على هذا القول؟!
- كما جرؤت أنت وأرسلت إلي من يلعب دوراً مملا في تمثيلية سخيفة
- ما هذا الهراء؟
- الهراء هو ما فعلته أنت يا أستاذ؛ أن ترسل لي شخصا يمثل دور صحفي لأكتشف في النهاية أنه مرسل من طرفك ليوضح لي أنك تنتظرني وأني فتاة أحلامك وبقية هذا الكلام السخيف.
- ماذا تقولين؟! أنا أرسلت إليك أنت أحدا؟
- نعم رسولك يوسف.. هو قال لي اسمك وأخذ يعدد صفات فتاة أحلامك، أما زلت تنكر؟
- من يوسف هذا؟
- اسمه يوسف فهمي
- من؟! (قال مصدوماً)
- أراك قد سكت.. إذن الأمر صحيح.. لقد سمعت عنك الكثير، وكنت أحترمك دون أن أراك، ولكنك الآن قد تدنيت في نظري

أنهت قولها ثم أغلقت الخط، وتركت محمد المالكي وعيناه تشع منهما نيرانا تستطيع أن تحرق الدنيا وما فيها، فقد احمر وجهه من الغضب،

وكانت أول مرة يغضب بهذا الشكل. لم يشعر إلا وهو يطلب يوسف في التليفون قائلاً بعنف:

- هل أنت ذهبت إلى نيرة مراد تتحدث باسمي؟

- الحقيقة أنه.. (متلعثماً) هناك سوء تفاهم

قال بحدة:

- ذهبت أم لم تذهب؟

- ذهبت.. ولكن.. (قاطعه الأستاذ)

- إنك إنسان سفيه عديم المسئولية، خائن لا تعرف صيانة المعروف، هل أنا بعد ما وصلت إليه، وبعد هذا العمر أتلقى توبيخا من أحد كنيرة مراد بسببك أنت!!

- أرجوك افهمني.. أنا

- اخرس.. لا أريد أن أسمع منك حرفاً.. من أين لنيرة أن تعرف مواصفات فتاة أحلامي.. أليس هذا الحديث هو ما أسررته إليك في منزلي ولا ثالث بيننا.. اعتبرتك صديقاً ولكنك انتهازي وصولي؛ (ثم أردف بحزم): نصيحتي لك ألا تعترض طريقي في أي مكان لأني لا أعرف ماذا سأفعل بك إن رأيتك ولو صدفة.

أغلق الأستاذ الخط وهو في حالة عصبية غريبة الطور، بينما جلس يوسف يؤنب نفسه ويوبخها، كيف لمثله أن يقع في مثل هذا الخطأ؟! كيف تسرع بهذا الشكل وتحدث إلى نيرة بتلك الصراحة البالغة؟! الأمر كان يجب أن يدار بشيء من الحكمة، فكيف فقد حكمته في لحظة؟! إنه أضاع كل شيء.. كل شيء انتهى بسبب غلطة واحدة، لكنها ليست كأي غلطة.. إنما هي غلطة الشاطر التي تحسب بألف.

فكرة مجنونة

ذهب يوسف إلى مكتب الأستاذ محمد عازماً أن يوضح له الحقيقة مهما كلفه الأمر، وإن كان يشعر في قرارة نفسه بأنه أخطأ خطأً فادحاً ليس من السهل التجاوز عنه، خاصة بعد الإحراج الذي تسبب له فيه مع نيرة مراد، وهو الذي ليس على سمعته غبار في الوسط الأدبي كله، ياله من موقف صعب قد وضع نفسه فيه دون داعٍ، لكن الأستاذ طيب القلب، هذا ما طمأن به نفسه وهو في طريقه إلى مكتب الأستاذ. دخل مكتب السكرتيرة كالطفل المذنب، وجد عندها فتاة كانت تستعطفها كي تقابل الأستاذ لكنها بمجرد أن رأته تجاهلتها ورحبت به ترحيبا بالغاً وطلبت منه أن يستريح، يبدو أنها لا تعلم بما حدث وهذا مؤشر جيد، فجلس ينتظر ودار أمامه هذا الحوار:

- أرجوكِ دعيني أقابل الأستاذ.. كم تمنيت أن أقابله ولو مرة
- الأستاذ مشغول جدا
- كل يوم مشغول؟!
- نعم
- حددي لي موعد يسمح فيه وقته
- الأستاذ مشغول دائماً
- أرجوكِ.. أنا من أشد المعجبين بالأستاذ
- أعرف هذا يا آنسة
- إذن فاقنعيه أن أقابله

- الأمر ليس بيدي.. الأستاذ لا يقابل المعجبين في أوقات العمل، وخاصة هذه الأيام لانشغاله الشديد.
- أنا لا أريد منه شيئاً.. فقط أريد أن أعبر له عن إعجابي الشديد به
- أرسلي كل ما تودين قوله على الصفحة الرسمية للأستاذ
- ولكن أحدا غير الأستاذ هو من يرد على رسائل الصفحة
- نعم.. هو مسؤول الصفحة
- ولكني أريد الأستاذ
- يا آنسة.. لدي أعمال كثيرة ، ولقد أخذتِ من وقتي الكثير.. تفضلي أرجوكِ

نظرت الفتاة حولها، فوقعت عينها على يوسف فشعرت ببعض الحرج، وخرجت في يأس.

توجه يوسف إلى السكرتيرة فقالت له حالا سأبلغ الأستاذ بوجودك، دخلت السكرتيرة للأستاذ وخرجت وقد تغير لونها محدثة يوسف:

- ماذا حدث يا أستاذ يوسف؟ الأستاذ غاضب منك غضبة شديدة.
- إنه سوء تفاهم.. وجئت لأوضحه
- للأسف يا أستاذ يوسف.. الأستاذ رفض لقاءك.. رفض حتى أن أستقبلك بمكتبي هذا
- دعيني أدخل له.. لن آخذ من وقته سوى دقائق
- أرجوك يا أستاذ يوسف لا تتسبب لي في حرج، فأنا لم أرَ الأستاذ في حياتي أشد غضباً من اليوم خاصة عندما ذكرت له اسمك.

علم يوسف إلى أي مدى توترت العلاقة بينه وبين الأستاذ، وهو يعرف الأستاذ جيداً.. رغم حلمه الشديد فعندما يغضب يتحول إلى شخصٍ آخر لا يرى ولا يسمع. فخرج مهموماً متباطيء الخطوات.

نزل يوسف إلى الشارع ووقف أمام سيارته ناظراً للزجاج الخارجي لمكتب الأستاذ بحسرة، بعد أن طرده الأستاذ من جنته للأبد، لكن ماذا جنى ليكون جزاؤه هذا الجزاء العنيف! وفجأة وجد أمامه فتاة - وكأن الأرض انشقت وأخرجتها – كانت جميلة فاتنة، عيناها بلون العسل المصفى تشع طاقة وحيوية، وشعرها كسلاسل الذهب، لحضورها بهاء وضياء كضوء الشمس، إنها تلك الفتاة التي رآها فوق في مكتب الأستاذ، لكنه لم يتحقق من ملامحها جيدا في المكتب، فقط ألقى عليها نظرة عابرة، فقد كان مشغولاً بشأنه، ولكن الآن أشعة الشمس قد كشفت عن حسنها، وساعدت على إبراز بريق عينيها الساحر.

- صباح الخير يا أستاذ (قالتها في رقة مصطنعة بعض الشيء)

- أهلا وسهلا

- أنا.. (قاطعها)

- أعرف.. تلك الفتاة التي كانت تلح في طلب الأستاذ محمد المالكي

- نعم أنا.. هل أنت صديقه؟

توتر يوسف بعض الشيء ثم أجاب:

- نعم.. نعم.. بالطبع صديقه

- عرفت هذا من ترحيب السكرتيرة بحضرتك (قالتها بسعادة عارمة)

قال يوسف في نفسه:

- الحمد لله أنها لم تشهد بقية الترحيب

- يا أستاذ.. هل لي أن أطلب منك خدمة؟

- بكل سرور.. إن استطعت

تمنى يوسف في نفسه أن تطلب ما يستطيع تقديمه لها، فقد كان سحرها لا يقاوم

- تفضلي يا آنسة.. كيف أستطيع أن أساعدك؟

- أريدك أن تيسر لي لقاء الأستاذ
- أي أستاذ؟! (قالها يوسف بنبرة ساخرة)
- الأستاذ محمد المالكي.. ألست صديقه؟ وإذا طلبت منه شيئاً حتماً لن يردك.
- آه.. ياله من مأزق (تمتم يوسف)
- أرجوك يا أستاذ.. أرجوك
- كنت أتمنى أن أساعدك ولكن ما تطلبين أمسى ضرباً من المستحيل
قالت فزعة:
- مستحيل!! أيرد الأستاذ أصدقاءه أيضاً؟!
- كلا بالطبع.. ولكن هذه المسألة شديدة الحساسية
كان يماطل في الحديث مع الفتاة حتى يسعفه رأسه بمخرج لائق
- حساسية! كيف؟!
و فجأة أسعفته بديهته فبادر قائلا:
- إنه لا يحب الوساطة في أي شيء وفي كل شيء، حتى لو لقاء أحد المعجبين.
برقت دمعة في عيني الفتاة قاربت الشبه بينها وبين الأطفال، وقالت:
- خسارة..
- هل تسمحين لي بسؤال؟
- تفضل (بنبرة هادئة حزينة)
- ما سر كل هذا الإصرار على لقاء الأستاذ؟!
- إني مغرمة به متيمة، أتابع كل لقاءاته، وأتتبع أخباره الشخصية، أريده فقط أن يعرف هذا لا أكثر
- أهذا كل ما في الأمر؟!
- نعم

- توقعت أنك صحفية تريدين الوساطة للعمل، وأنك أخفيت الأمر على السكرتيرة كي تسمح لكِ بلقائه!
- كلا ليس لي أي علاقة بالصحافة.
- معذرة يا آنسة.. كنت أتمنى مساعدتك، ولكن ليس بمقدوري الآن صدقيني
- لا عليك يا أستاذ.. شكرا لك

انصرفت الفتاة بأدب، وتابعها يوسف بعينيه، وجدها تتجه نحو سيارة تدل على حال ميسور، كما أن الفتاة نفسها تشير إلى مستوى اجتماعي متميز بعض الشيء. وبينما تفتح الفتاة باب سيارتها لاحت أمام عيني يوسف فكرة - كما يظهر البرق في سماء الشتاء القاسي- فكرة جعلت دقات قلبه تتسارع، وزلزلت كيانه في لحظات.

- فكرة مجنونة.. مجنونة حقاً.. لكن لابد أن تحترم (تمتم يوسف)

لم يشعر إلا وهو يجري في الشارع محاولاً اللحاق بالفتاة، وكانت سيارتها قد بدأت في التحرك.

- يا آنسة.. يا آنسة.. ياالا حماقتي.. كيف لم أسألها عن اسمها بعد!

وانتبهت الفتاة لصوته، فأوقفت سيارتها ونزلت منها

- خيراً يا أستاذ
- خير.. كل خير إن شاء الله (قالها وهو يلهث)
- تفضل في السيارة لتلتقط أنفاسك
- شكرا.. أنا بخير.. لحقتك لأني شعرت بالسخف إذ رددتك
- لا عليك.. أنا مقدرة أن الأمر خارج إرادتك
- أحقا تريدين لقاء الأستاذ؟!
- بالطبع.. طبعا (قالتها بلهفة)
- وإن ساعدتك؟!

- حقا يا أستاذ.. ستساعدني أن ألتقي بالأستاذ؟
- بل وما هو أكثر من ذلك.. إن أردتِ
- أكثر من ذلك!
- نعم.. (قالها يوسف بكل ثقة)
- وكيف ستساعدني؟
- بالطبع لن نتفق هنا في الطريق.. لابد أن نلتقي مرة أخرى كي أوضح لكِ كل شيء
- حسناً.. (قالتها بفرحة طفل)
- إذن اتفقنا يا...
- ياسمين
- وأنا يوسف.. صحفي
- تشرفنا يا أستاذ يوسف

تبادلا أرقام التليفونات واختفت ياسمين بسيارتها عن الأنظار، وعاد يوسف إلى سيارته، وظل جالسا فيها لم يتحرك، شارداً يفكر في أمر تلك الفكرة المجنونة التي طرأت عليه كالوحي.

اتفاق

خيم الصمت على اللقاء في الخمس دقائق الأولى حتى قطعه يوسف قائلا:

- جميل هذا النادي

- ألم تأتِ هنا من قبل؟

- كلا

- أنا آتي هنا منذ الصغر، فأبي عضو بالنادي قبل أن أولد، إنه أشبه ببيتي الثاني، وقد تعرفت هنا على الكثير من الأصدقاء.

- المكان لطيف فعلا. (همس لنفسه): ومناسب للقاءاتنا فيما بعد إذا جاز لها أن تتكرر

- ولكنك لم تخبرني بعد هل حقا ستساعدني كما ذكرت لي؟

- بالطبع ولكن لابد أن تساعديني أنتِ أيضا

- كيف؟

- أن تكوني صريحة معي إلى أبعد حد، فصراحتك معي ستساعدني كي أساعدك

- أنا لا أفهم شيئاً

- على سبيل المثال أريد أن أعرف السبب الحقيقي وراء إصرارك على لقاء الأستاذ؟

- لقد أخبرتك سابقا حين قابلتك أمام مكتبه

- ليس هذا هو السبب الحقيقي

- بل هو.. ولا سبب غيره

- آنسة ياسمين.. لقد اتفقنا على الصراحة
- قلت لك أني معجبة به، وهذا هو السبب
- الإعجاب وحده هو السبب!
- نعم
- أهو إعجابٌ أم حب؟

هالها ما سمعت بعض الشيء ثم أجابت:

- إعجاب
- الإعجاب وحده لا يجعل صاحبه يقاتل كما تقاتلين، نظر إليها نظرة طويلة صامتة ثم استدرك قائلا: شيئان يجعلان الإنسان يقاتل: الإيمان والحب.
- الحب! (قالت في ارتباك ملحوظ)
- توقفتي فقط عند الحب. (مشيرا إليها بإصبعه وهو يضحك)
- زاد ارتباكها فقالت دون تفكير: لأنك كنت تقصده هو
- لا.. أبدا
- أكنت تقصد الإيمان إذن؟!
- ربما
- الإيمان بمن؟
- بالأستاذ محمد، بأدبه ومؤلفاته مثلا!
- أستاذ يوسف.. أرجوك كن واضحاً وإلا انصرفت
- لا تغضبي هكذا، إني ما أردت قوله أنه ليس من المعقول أن تفعلي كل هذا من أجل مقابلة الأستاذ حتى تقولي له أنك معجبة به، كنت أريد أن أعرف أكثر عن أشياء أراها في عينيك ولا يفصح بها لسانك، إن أردت البوح بها اتفقنا، وإن لم تريدي فلك هذا، ويمضي كل منا إلى غايته في سلام.

أطرقت برهة ثم قالت مستخدمة جرأتها المعهودة:
- إني ما أردت لقاء الأستاذ لأراه، ولكني أردت لقاءه ليراني، فقط يراني، هذا كل ما آمله
- لمح في عينيها لمعة تنم عن طموح جارف فتشجع أن يسترسل:
- فإذا رآك!!
- لن يرى بعدها شيئاً (قالت بنبرة مثيرة)
ملأت كلمات ياسمين ونظراتها نفسه نشوة، لقد أيقن الآن أنها تبحث عن الأستاذ لتسلبه لبه، إذن الهدف واحد وإن اختلفت الدوافع، فقال بارتياح:
- يكفيني أن أعرف هذا
تنهدت قائلة:
- الحمد لله
قال في حماس شديد:
- إذن اسمعيني جيدا.. إنكِ حتى تقتربي من الأستاذ محمد لابد أن تكوني على دراية بطريقة تفكيره، بأسلوب حياته، تتعرفين على جميع اهتماماته وتشاركينه فيها.
- وكيف يتثنى لي أن أعرف كل هذا؟
- هذا هو دوري.. فأنا أعلم عنه كل صغيرة وكبيرة، وأنا على استعداد أن أمدك بكل المعلومات اللازمة لكِ
قالت ياسمين وقد بدا في عينيها لمعة زادت من جمالهما:
- حقا يا أستاذ؟!
- نعم
- ولكن لم تفعل شيئا كهذا؟

- أحب أن أحتفظ لنفسي بالسبب
صمتت ياسمين وبدا في عينيها القلق، فاستدرك يوسف قائلا:
- على الأقل في الفترة الحالية
- أفهم من هذا أنك ستجيبني لاحقا؟
هز يوسف رأسه بالإيجاب وقال:
- أعدك أن تفهمي كل شيء في موعده المحدد.. واعلمي أني لا أريد بكِ وبمحمد إلا الخير
شعرت ياسمين ببعض الاطمئنان وقالت بحماس :
- وأنا معك
- إذن في البداية لابد أن نتفق على بعض الأمور
- ما هي؟
- أولا: الصبر وعدم العجلة
ثانيا: أن تجيبيني على كل الأسئلة التي أطلب معرفتها منك بمنتهى الصدق والصراحة
ثالثا: أن تتبعي كل تعليماتي
- تعليمات!!
- نعم.. فأنا لن أقول لك معلومات عن المالكي وأتركك لشأنك هكذا، فبماذا تفيدك المعلومات وأنتِ لا تستطيعين لقاءه؟! إنما دوري أن أرتب لك لقاءه في الموعد المناسب والمكان المناسب والظروف المناسبة أيضاً، وحتى يتحقق لنا ما نريد، لابد من وجود تعليمات محسوبة يتم تنفيذها بدقة.
- بدأت أفهم بعض الشيء

- وأولى هذه التعليمات بل وأهمها: منذ الآن لا تحاولي لقاء الأستاذ بأي طريقةٍ كانت، وإن قابلته في أي مكان لا تلتفتي نحوه وإن وجدت الحديث إليه سهلا ميَّسراً.
- ماذا تقول يا أستاذ؟ إني أتمنى أن أحظى بمثل هذه اللحظة
- اسمعي يا آنسة.. إني ما جئت للقائك في جلسة خاصة إلا لأسعى أن أقربك من الأستاذ لأقرب مما يخطر في بالك، وإن كان الأمر سهلا هيناً لأخذت بكِ إلى مكتبه وقدمتك له بمنتهى البساطة، ولكن سبق أن قلت لكِ أنه لا يحب هذا وفي تلك الحالة لن يرحب بي ولا بك. لكني أريدك أن تعرفيه عن قرب كما تريدين، أريدك قريبة منه برغبته وترحيبه، ولابد أن تعلمي أن هذا الأمر لن يتم بسهولة ولا بسرعة. فالأمر يحتاج إلى صبر، وإن كنتِ في عجلة من أمرك فاسلكي طريقك بمفردك، ولقد تشرفت بمعرفتك.
- مهلا يا أستاذ يوسف من قال لك أني متعجلة!! أنا فقط أريد أن أفهم
- قلت لك ستفهمين لاحقا
- حسنا (قالت ياسمين ممتعضة)
- إذن اتفقنا (مد يده ليصافحها)
- اتفقنا.. (تصافحا ثم استدركت ياسمين قائلة): ومتى نبدأ؟
- الآن.. فلا وقت نضيعه.. أعرف أنك من قراء الأستاذ، فماذا قرأتِ له؟
- أنا لست من قراء الأستاذ
- ماذا؟ ألم تقولي لي -في أول لقائي بك- أنك من أشد المعجبين به والمتابعين له؟!!
- بالفعل قلت هذا.. متابعة لأخباره وصوره وبرامجه، لم أقل كتبه
- ألم تقرأي له شيئاً على الإطلاق؟!
- كلا..

نظر إليها نظرة حانقة ذاهلة ثم قال:
- هل تقرأين لكتابٍ آخرين؟
- كلا.. فأنا لا أحب القراءة، أمل منها، لا أطيقها
- يا الله.. ماذا أسمع؟!
- ماذا حدث يا أستاذ؟!
- أتريدين التعرف على الأستاذ محمد المالكي وهو من أكبر مثقفي البلد إن لم يكن أكثرهم ثقافة، وأنتِ لم تقرأي كتاباً واحداً في حياتك!! كيف ستلفتين انتباهه؟! وإذا جلستما سويا في أي شيء ستتحدثان؟ أتظنين أن يحدثك الأستاذ عن أحدث صيحات الموضة وألوان الشعر!! لا للأسف لن تنجح مهمتنا، اعتبري كل شيء منتهي.
كان يوسف ماكراً، فهو لمح في عين ياسمين العناد والإصرار والشخصية القوية، وشعر ببعض الصعوبة في ترويضها، فقرر أن يجعلها هي من تطلب أن تنصاع له بل وترجوه أن يوجهها لتنفذ؛ فربما إن أرغمها على القراءة اعترضت وامتنعت، ولكن بهذه الطريقة حتما رد الفعل سيختلف.
- رفقاً بي يا أستاذ.. وقل لي ما ينبغي عليّ فعله
قال بطريقة تمثيلية:
- لا.. الأمر سيتطلب جهداً كبيراً، فمثلا سنحتاج إلى قراءة الكثير من الكتب في أقصر وقت ممكن، وأنتِ لا تحبين القراءة، كما قد نضطر إلى تغيير بعض عاداتك إن لم يكن أغلبها، وربما لا يكون هذا في مقدورك.
- لماذا افترضت كل هذا؟! أنا على استعداد لتنفيذ كل ما تريد.
- اعذريني يا ياسمين، فأنا سوف أبذل معكِ الكثير من الوقت والجهد، وإذا انسحبتِ في منتصف الطريق سأكون أنا الخاسر الوحيد.

- لا تقلق.. أعدك ألا أنسحب.. على شرط أن تنفذ أنت أيضا وعدك لي وتقابلني بالأستاذ.
- حسنا.. الأمر أيضا قد يتطلب بعض التفرغ، هل لديك عمل في الوقت الحالي؟
- كلا.. أنا لا أعمل
- لماذا؟
- ما أحببت
- ومن أين تنفقين؟
- والدي رحمه الله قد ترك لنا ميراثاً كبيرا، أعيش منه أنا ووالدتي.
- هل أنتِ فتاة وحيدة؟
- نعم
- لذلك مدللة
- بعض الشيء (قالت في دلال)

وكلما كشفت ياسمين عن شيء في حياتها أصاب يوسف الهم والقلق، فهي شخصية مختلفة تماماً عن محمد المالكي، فكيف يجعل منها فتاة جديرة بإعجابه، ولفت انتباهه، وسرقة قلبه وعقله كما كان يتمنى، إنها سطحية جدا تافهة جدا، حقا إن سحر جمالها يغلب أقوى الرجال، لكن المالكي ليس ككل الرجال، إنه تحدي، وهو يعشق التحدي، لذلك قرر يوسف أن يخوض تلك التجربة المثيرة، وأخذ على نفسه عهداً بالنجاح فيها.

الجميلة تقرأ

علمت ياسمين أنها قد انضمت إلى معسكر، فيوسف صارم كضباط الجيش، يمدها بعدد من الكتب ويحدد لها موعد الانتهاء من كل كتاب، ولايتهاون في التأخير أو التقصير، وكلما تنتهي من قراءة كتاب يلتقي بها ليناقشها فيه، ويشرح لها ما تعسر عليها فهمه. وكان شرحه مفيدا لها أكثر من القراءة، فهو يمدها بالمعلومة جاهزة خالصة وبشكل مبسط، فقد كان يراعي مستوى تفكيرها وسطحيتها البالغة. وبجوار القراءة كان يحدد لها نوع الموسيقى والأغاني التي تستمع إليها، كما نهاها عن بعض الأغاني التي اعتادت سماعها، وكلما ضجرت ياسمين أو استاءت ذكرها أن كل شيء تم الاتفاق عليه من البداية وهي وافقت على ذلك. كل هذا الجهد وكل هذه المعلومات ولم تحظَ ياسمين بمعلومة واحدة عن محمد المالكي كما وعدها يوسف، وعندما سألته قال لها: اعتبري نفسك تدرسين في أكاديمية، لها مناهج محددة وامتحانات، والمعلومات الخاصة بمحمد المالكي ستجدينها في السنة الأخيرة، بعد أن تجتازي جميع الاختبارات. وقام يوسف بعمل جدول لياسمين لزيارة المتاحف المختلفة والأماكن الأثرية، والمسارح والسينمات وكل ما يهتم به محمد المالكي. كان يقول لها دائماً اسأليني عن كل شيء وأي شيء لا تفهمينه، أريدك واعية. كانت ياسمين تفعل كل هذا باستياء، لكنها كلما نظرت إلى صورة محمد المالكي التي لا تفارق خيالها غالبت استيائها وكانت على استعداد أن تفعل ما هو أكثر، فكل شيء يهون من أجل عينيه.

أتقنت ياسمين كل مهمة كلفها بها يوسف رغم كرهها الشديد للقراءة والتعليمات وطلبات يوسف التي لا تنتهي. إنها لا تحب تلقي تعليمات

من أحد، فهي دائماً حرة طليقة، لم تعمل كي لا تتلقى أوامر، ولا تلتزم بمواعيد، إنها شخصية مستقلة عنيدة. هي الآن تفعل ما فوق طاقتها، ولكن الهدف يستحق، إن ياسمين كبقية الفتيات في عمرها، تبحث عن عريس، لكن ياسمين ما أرادت أي عريس، إن نظرتها إلى ذلك العريس كنظرة المرأة إلى قطعة الحلي الذي تزين بها صدرها وتتباهى بها أمام الناس، إنها ما فكرت في شخصيته أو طباعه وإنما تفكر فيما سيقوله الناس عنها وعنه، وكيف أن الفتيات سيحسدونها عليه. وما وقعت عيناها على المالكي إلا ووجدت فيه كل الصفات التي تتمناها.

توالت جلساتها مع يوسف، والقراءة لا تنتهي، والكتب لا تفنى، في البداية كانت تقرأ الروايات والكتب القصيرة ثم تقرأ الأطول فالأطول حتى جاءها يوسف يوما بكتاب قائلاً:

- هذا ما ستقرأينه هذه المرة

نظرت ياسمين إلى الكتاب في فزع وقالت باستنكار:

- من الذي سيقرؤه؟ أنا؟!

- نعم (أجاب بابتسامة هادئة)

أمسكت ياسمين بالكتاب وقلبت صفحاته ثم قالت في ذعر:

- ثمانمائة صفحة!! أتريدني أن اقرأ كتاباً ذا ثمانمائة صفحة؟!

- ما الصعوبة في الامر؟ من المفترض أنك تعودتي القراءة، ففي الشهور السابقة قرأتي عدداً كبيراً من الكتب والروايات

- نعم قرأت ولكن أكبر كتاب كان أربعمائة صفحة وكنت أموت وأحيا أكثر من مرة حتى أنتهي من قراءته.. لا هذا فوق طاقتي حقا

- جربي

تمعن النظر في الكتاب لتقرأ عنوانه ثم تندفع فجأة قائلة:

- ماذا! الجزء الأول!! أيوجد منه جزء ثاني؟!

ضحك يوسف قائلاً:
- بل ثلاثة أجزاء أخرى.. هم أربعة مجلدات
- أربعة مجلدات!! وكلهم نفس عدد الصفحات؟
- نعم.. وأحيانا أكثر
- لا.. لن أستطيع
- باستطاعتك عمل أي شيء، إن قدراتك فائقة يا ياسمين
- باستطاعتي ولن أقرأه.. (قالتها بعناد)
- منذ متى وأنتِ تعترضين؟!
- يا أستاذ يوسف.. إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.. أنت تعرف جيدا أني أكره القراءة، أمقتها ولا أحتملها ومع ذلك كل كتاب أعطيتني إياه قرأته صغر أم كبر، سهل أم صعب، ولكن ليس لهذه الدرجة، أربعة مجلدات كل منها ثمانمائة صفحة، من أين أتتك هذه الثقة أني أستطيع أن أقرأ أكثر من ثلاثة آلاف صفحة؟!
- أنا لا أتحامل عليك يا ياسمين، ولكن هذه موسوعة شخصية مصر الذي يستشهد بها الأستاذ كثيرا في مقالاته، ومهم جدا أن تقرأيها، إن الأستاذ من أشد المعجبين بكاتب هذه المجموعة: الدكتور جمال حمدان ولذلك أتيت بها إليك
- بالتأكيد هو يعجب بكتاب آخرين فابحث لي عن كاتب آخر يعجب به وتكون عدد صفحاته معقولة
أدرك يوسف أن إجبار ياسمين هذه المرة ليس في مصلحته في الوقت الحالي خاصة بعدما قطع معها هذا الشوط الهائل من التعليم والتثقيف، كما أن في نبرة صوتها تصميم وعناد أجبر يوسف على التصرف بشيء من الحكمة، فقرر أن يستعيدها مرة أخرى فقال:

- حسنا.. دعينا من هذا الكتاب الآن، فقد حان الوقت لتتعرفي على عادات الأستاذ وطباعه
- ماذا؟ أتعني أني قد وصلت للسنة الأخيرة كما قلت لي سابقاً؟
- نعم.. لقد اجتزتِ كل اختباراتك بنجاح ماعدا.. (صمت ناظراً إلى الكتاب على المنضدة)
- لا.. ما أخفقت فيه، فأنا لم أدخل الاختبار
- من يتغيب عن الامتحان يخسر درجاته كاملة
- لكني أطمع في درجات الرأفة

ضحك يوسف وقال لها: تغلبينني دائماً بخفة ظلك ثم طفق يصف لها الأستاذ ويشرح لها طقوسه وعاداته وكيف تتعامل مع كل منها من حيث الفعل ورد الفعل، واستغرق هذا الأمر جلسات طالت كان يتحرى فيها التدقيق في كل كلمة ويراعي أصغر وأدق التفاصيل، حتى أعلن يوسف جاهزيتها لذلك اللقاء المرتقب، وباتت ليلتها ساهرة من فرط السعادة.

لقاء صامت

دخلت المقهى في الصباح الباكر قبل موعد وصول الأستاذ محمد المالكي.. كانت بهية الطلعة في زي كلاسيكي أنيق يكاد لا ينتمي إلى هذا العصر، غير شاذ عنه، مألوف للعين وجاذب للنظر في ذات الوقت. جلست إلى المنضدة المجاورة لتلك الخاصة به، واختارت الكرسي المقابل للكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه دوما حيث كان يحب أن يجلس في الهواء الطلق.. طلبت فنجانا من القهوة وأخرجت من حقيبة يدها كتابا ووضعته بجوار القهوة وجلست تنتظره. لم يعكر صفوها سوى ذلك الحذاء عالي الكعب، فقد كانت تشعر أنه يمزق قدميها تمزيقاً، فهي لم تعتد ارتداءه ولم تحبه يوما، لكنها نصيحة يوسف.. لست أدري ما الذي بإمكان الكعب أن يفعله؟! (محدثة نفسها في سخرية) فكرت أن تخلعه أثناء جلوسها ثم ترتديه تارة أخرى عندما تنهض، لكن الصدمة الكبرى كانت عندما نظرت إلى المنضدة التي بدت مكشوفة للعيان من أسفل، فإذا هي خلعت الحذاء رآها كل رواد المقهى وأولهم هو. سحقا لهذه الطاولات الحمقاء، أما كان بإمكانهم استبدالها بأخرى ليست مكشوفة بهذا الشكل!! فضَّلت أن تتحمل آلام قدميها على أن تظهر أمامه بشكل غير لائق. بدأت ترتشف القهوة علها تستفيق بعض الشيء، فقد كان أكثر شيء تكرهه هو الاستيقاظ المبكر، لكن جمال النسيم وروعة الجو أضفت عليها بعض الحيوية والنشاط. كان المقهى خاليا تماما وبالتالي سيكون الجو خاليا تماما أيضا لكي يستطيع أن يراها جيدا، فلا يوجد أحد سواها في المكان.. صوبت عيناها نحو مدخل المقهى لا تلتفت يمينا أو يسارا كي تراه فور وصوله. أخذت

تتخيله عندما يصل فيجدها جالسة بمفردها فيأتي ليتحدث إليها ويسألها في أي شيء تقرأ، ثم يجلس معها على الطاولة ويطلب لها فنجانا آخر من القهوة، ثم يبدأ في التعرف عليها كما يحكي لها عن نفسه، وقد رتبت في عقلها كيف ستتكلم، وكيف ستضحك، وكيف ستكون سكناتها وحركاتها بشكل يسلب لبه ويأسر قلبه، وفجأة رأته يعبر بوابة المقهى ارتبكت وتسارعت دقات قلبها واحمرت وجنتاها وأمسكت الكتاب بسرعة وبدت كأنها تقرأ منذ ساعات. أخذت ترقبه خلسة من خلف جدران الكتاب دون أن يلحظ.. ما هذا البهاء! ما تلك الأناقة! إن رائحة عطره الأخاذ تفوح في كل أرجاء المكان.. إنه حقا بديع. وتعجبت كيف لها أن تراه أمامها هكذا ولا تقبل عليه وتصارحه بإعجابها الشديد به وهي التي طالما أجرت المحاولات للقائه والتحدث إليه، وها هي الفرصة تسنح ولا تسمح.. إنها تجاهد هوى نفسها جهادا مرا في عدم الالتفات إليه والتأمل في وجهه أو محاولة التعرف عليه، فلا بد أن تتبع تعليمات يوسف.. آه.. ليتك تصدق يا يوسف.. ليت كل ما تفعله معي يجني ثماره، وأحظى بهذا الفارس.. فارس الأحلام، وقطع صوته العذب حبل أفكارها وهو يطلب قهوته الصباحية، لكنها لم تلتفت إليه أو إلى غيره فهي تلتزم بتعليمات يوسف تمام الالتزام فلابد أن تظل تقرأ وتقرأ وتبدو مستغرقة في القراءة دون أن تحفل بأي شيء حولها حتى لو كان هو. اختلست النظر إليه وجدته يطالع الصحف اليومية.. صحف!! أيوجد أحد في تلك الأيام يطالع الصحف؟! ظلت تتابعه حتى أنهى قراءته للصحف وبدأ يطالع كتابا.. ألن يلتفت إليّ؟ ألن يراني؟! بدأ الزوار يتوافدون على المقهى وهو غارق فيما يقرأ ولا يلتفت. أمر طبيعي جدا أن يبقى حتى تلك السن دون زواج.. من أين له التعرف على فتاة يعجب بها ويحبها وهو لا يرى أحدا ولا يشعر بأحد!! ولو ظل على تلك الحال

فسوف تذهب كل جهودي سدى. ظل هذا الحديث يدور في رأسها طول فترة الانتظار. مرت ساعتان وهي على هذا النحو.. تراقبه ولا يلمحها.. كاد الملل أن يقتلها بل قتلها بالفعل حتى غالبها النوم لكنها غلبته و ثابرت حتى غادر -والله وحده يعلم مدى العناء الذي تكبدته من أجل تلك المثابرة- كانت تتمنى أن تعدو وراءه وتلحق به وتعبر له عن كل ما يدور بداخلها ولكن التعليمات.. آه سحقا للتعليمات وسحقا ليوسف.

مر أسبوع كامل على نفس الحال وفي نهاية كل يوم تلتقي بيوسف ليتسلم منها تقريراً يومياً بما حدث في الصباح، حتى ضاق صدر ياسمين وقالت بنبرة حانقة:

- يا أستاذ يوسف لا جدوى مما نفعله مادام الأستاذ يجلس إلى طاولته في المقهى كأبي الهول لا يلتفت ولا يبالي بأحد، ولو ظللت على هذه الحال سيشيب رأسي قبل أن يلتفت إلي

شرد يوسف قليلا ثم أجابها قائلا:

- اسمعي يا ياسمين أريدك أن تذهبي غداً إلى المقهى في المساء لا في الصباح

- أويذهب هو في المساء؟

- كلا

- فلماذا أذهب أنا إذن

- نفذي ما قلت لك دون نقاش، وبعد عودتك سنعرف ما ينبغي علينا فعله بالضبط

وبالفعل نفذت ياسمين ما طلبه يوسف وذهبت إلى المقهى مساءً وهي تتأفف غضباً ومللاً قائلة لنفسها: فلنبقى وراء يوسف حتى باب الدار،

لكن الويل لك مني يا يوسف إن كنت تخدعني، فإنك لا تعرف ياسمين بعد، وأثناء شرودها جاءها أحد العاملين بالمقهى:

- هل أحضر لحضرتك القهوة يا أستاذة؟

- لا كفانا قهوة.. أحضر لي أي نوعٍ من العصير (قالتها في حنق)

- الأستاذ محمد المالكي سأل عن حضرتك اليوم

مرت الجملة على أذنيها عابرة فلم تستوعبها أول الأمر، ثم عاودها الوعي فسألت بسرعة:

- ماذا؟ هل قلت شيئاً؟

- نعم.. قلت أن الأستاذ محمد المالكي سأل عن حضرتك اليوم

- عني أنا؟!

- نعم

- متى؟

- صباح اليوم

- ماذا قال لك؟

قال لي:

- كانت هناك آنسة تجلس إلى هذه المنضدة كل صباح.. أتعرف لماذا لم تحضر اليوم؟ فقلت له: لا أعرف فسألني عن اسمك فقلت له أيضا لا أعرف، وعندما رأيتك قلت من الواجب أن أخبرك بما دار عنك في الصباح

- نعم.. نعم.. أشكرك بشدة

أخرجت ياسمين من حقيبتها بعض النقود وأعطتها له وقالت:

- إذا رأيته لا تقل له أنك أخبرتني شيئا

- تحت أمرك يا فندم (أخذ النقود فرحا وذهب)

خرجت ياسمين من المقهى وهي لا تصدق نفسها، لا تعرف أهي تسير على الأرض أم تحلق في السماء؛ توجهت للتو إلى يوسف الذي كان ينتظرها، وعندما رأته أخبرته بما دار بينها وبين عامل المقهى وهي في غاية السعادة والإشراق

قال وعلى وجهه علامات الفرح والدهشة:

- ممتاز جدا.. هايل.. هل عرفتِ الآن جدوى ذهابك الليلة، وجدوى وجودك في المقهى كل صباح؟ (قالها يوسف بفخر)

- نعم.. عرفت، وعرفت أيضا أنك بالتأكيد إنسان غيرعادي، قل لي هل كنت تعرف أنه سيسأل عني إذا غبت؟

- ليس بالضبط.. أنا فقط كنت أتحسس الأمر.. ولم يكن في ذهني شيء محدد، لكن النتائج فاقت كل التوقعات؛ لقد أحسنتِ بما فعلته مع عامل المقهى، فلا ينبغي أن يعرف أنك قد بلغك اهتمامه بك.

- ولكن ما يحيرني كيف يراني ويتابع حضوري وهو لم يلتفت نحوي مرة واحدة؟!

ابتسم يوسف ابتسامة ظلت مرسومة على وجهه وقال: هذا هو الأستاذ.

- قل لي يا أستاذ ماذا سنفعل بعد ذلك؟

- الهجوم

- هجوم؟!

- نعم.. لقد حان وقت الهجوم

- لا أفهم شيئاً

- سأشرح لكِ كل شيء يا عزيزتي

لحظة الهجوم

ذهبت ياسمين إلى المقهى في الصباح كالعادة، لكن شتان بين شعورها اليوم وشعورها بالأمس، فقد كان لسؤال الأستاذ عنها أبلغ الأثر في حالتها النفسية، فقد تبدل الملل بالحماس، والكسل بالنشاط، والحنق بالسعادة، واستعادت شغفها المفقود. دخلت المقهى واثقة الخطى مليئة بالحيوية والسعادة، ولكن ثَّمَ تغيير في الروتين اليومي، فقد أخبرها يوسف أن تصل اليوم بعد محمد لا قبله -كما كانت تفعل كل مرة- وبالفعل وصلت بعده ومرت بجوار طاولته غير ناظرة إليه وفي يدها عدد من كتب وروايات الأستاذ وغيره من كبار الأدباء ثم تعمدت أن تتعثر بجوار طاولته فتقع الكتب من يدها تحت قدميه، وهنا انتفض الأستاذ ليجمع لها ما وقع من كتب.

- أنا متأسفه جدا (قالتها برقة مصطنعة)

- لا عليكِ.. حصل خير

نظر إلى عناوين الكتب وهو يجمعها ثم قال:

- أرى أن كتبي تنال نصيب الأسد من قراءاتك يا آنسة

ابتسمت في رقة ثم قالت:

- نعم.. فأنا من أشد المعجبات بك، وإن كنت غير راضية عن روايتك الأخيرة

هكذا علمها يوسف أن تبدأ بالهجوم، ولا داعي للإفراط في الثناء عليه وإبداء الإعجاب به

- لماذا؟

- نهايتها حزينة للغاية

- وواقعنا أشد حزناً
- مالي والواقع؟! أنا أقرأ هرباً من الواقع
نظر إليها نظرة تستطيع المرأة الذكية قراءتها جيداً، إنها نظرة انبهار، نظرة من تفاجأ بالرد وأعجب به. أكسبتها تلك النظرة مزيداً من الثقة؛ ثم قال لها بشياكة:
- لا أعتقد أن نستكمل حديثنا واقفين هكذا، تفضلي بالجلوس
- ولكن يبدو أنك مشغول للغاية
- كلا.. أنا لست مشغولاً على الإطلاق
كانت تعرف جيداً أنه يكون مشغولاً دائما في هذا الوقت، لكن يبدو أن الرياح قد تحالفت مع السفن هذه المرة، والأمور كلها ستسير على ما يرام. جلست بهدوء ورقة، وقد أضافت السعادة إلى جمالها جمالاً، وضوء الشمس الساطع زاد حسنها بهاءً.
وأردف الأستاذ حديثه قائلاً:
- أنتِ تفضلين الروايات الخيالية إذن!
- أفضل الروايات السعيدة
- وما السعادة سوى خيال؟!
- السعادة خيال؟! (قالتها باستنكار)
قال بصوت هاديء ونبرة حالمة:
- أجل.. السعادة خيال.. طيف.. نبحث عنه دائماً، نطارده في كل مكان وزمان، مع كل شخص، وفي كل ظرف. نبذل في سبيلها قصارى الجهد، وننفق ربيع العمر، نذبح القرابين على أعتابها، ونشعل لها الأبخرة علها ترضى وتخضع، لكنها دائما أسرع من خطواتنا، نراها تعدو أمامنا ولا ندركها. إنها لا ترضى إلا عمن يرضى، ولا تخضع إلا لمن يقنع، والرضا والقناعة عملات قلما يمتلكها الإنسان.

- الله.. ما أجمل كلماتك يا أستاذ!
فجأة تذكرت توصيات يوسف: لا تسرفي في الثناء عليه، يا لي من حمقاء، سبق لساني عقلي (تمتمت ياسمين في نفسها ثم استدركت قائلة ببعض الدلال):
- الحقيقة يا أستاذ أني أحب النهايات السعيدة لأني أعيش مع أحداث الروايات، أستنشقها.. أتنفسها، وعندما تكون النهاية حزينة أدخل في حالة اكتئاب لا أستطيع الخلاص منها بسهولة.
- يبدو أنك حالمة يا آنسة.... (توقف لحظة)
- ياسمين.. اسمي ياسمين
أغمض عينيه لحظة واستنشق بعض الهواء ثم قال:
- ياسمين.. ياله من اسمٍ جميل! كأنه وضع خصيصاً من أجلك
- أشكرك يا أستاذ
- أريد أن أسألك عن شيءٍ يشغلني
- ما هو؟
- إني رأيتك هنا أكثر من مرة، تخيلت في بداية الأمر أنك لا تعرفينني، والآن وقد عرفت أنك من قرائي، وتعرفينني جيداً، فلم لم تحاولي التحدث إليّ؟! على الأقل لتخبريني برأيك هذا في روايتي الأخيرة.
- لا أحب هذا
- لماذا؟!
- لأني أعرف كتاباتك جيداً لكني لا أعرفك أنت.
- وهل هناك فرق؟!
- بالطبع، فأنا مثلا أعرف طباع شخصياتك، ولا أعرف طباعك، وما دمت لا أعرفك معرفة شخصية فأنت بالنسبة لي رجل غريب، هل يُعقل أن أتحدث إلى رجلٍ غريب بلا سبب؟!

كانت ياسمين تردد الكلمات التي لقَّنها يوسف إياها، فهي لم تنس بعد تلك الأيام التي كانت تتردد فيها على مكتبه وتتوسل إلى السكرتيرة كي تسمح لها بلقائه.

- الأمرهنا يختلف، فالمشاهير من الناس لهم الكثير من المعجبين والمعجبات، وهم اعتادوا أن يعترض الناس طريقهم ويتحدثون إليهم دون سابق معرفة شخصية.

- هذا ليس من طبعي

و كلما تحدثت بكلمات يوسف شعرت نفسها مصطنعة إلى حد بعيد، لكنها تراه يتلقى هذه الكلمات بنية حسنة، ويجيب عليها بجدية وحماس فتستمر وتقول في نفسها: يا لك من شيطان يا يوسف، وعدت وأنجزت.

- اسمحيلي يا آنسة أن أبدي إعجابي بطبعك هذا، فقليلون من هم مثلك في هذه الأيام.

- أشكرك

وهذه أيضا من تعليمات يوسف، الكلام القليل، والردود المختصرة، وهي تنفذ كل شيء بالحرف.

- أراكِ تقرأين لكبار الأدباء

- نعم.. فأنا أحب القراءة جداً (قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة باردة)

- ممتاز..

نظرت في ساعتها وقالت:

- لقد مر الوقت سريعاً ولديَّ موعد هام.. اسمح لي بالانصراف

- سأراكِ غداً؟

- أنا لا أخلف ميعاد القراءة صباحاً في المقهى إلا لظرفٍ طاريء

- إذن نكمل حديثنا في الغد
- بكل سرور.. إلى اللقاء
- إلى اللقاء

كانت تريد البقاء بالطبع لكنها أضحت مثل سندريلا لها موعد انصراف حدده لها الأستاذ يوسف، حقاً هي سندريلا، ويوسف ذاك الساحر هو الذي مكنَّها من لقاء الأمير، ويوسف قال: لا تطيلي الجلوس معه، وتخيري الوقت الذي تنصرفين فيه بلباقة وذوق. وتعليمات يوسف اليوم أحرى أن تُنفذ بعد أن أثبتت جدارتها وكفاءتها، وجنت أجمل الثمار.

شهادة نجاح

ذهب يوسف إلى منزل صديقه يحيى ووضع يده على جرس الباب ولم يرفعها؛ فتح يحيى الباب فزعا:

- يوسف! ما الأمر يا يوسف؟!
- أدخلني أولا يا صديقي
- أرى على وجهك سعادة عارمة.. ماذا حدث؟
- إني قادمٌ إليك اليوم وأنا أحمل شهادة نجاحي (قال يوسف بفخر)
- نجاحك! فِيمَ؟!
- في الحياة.. في الإصرار.. في التحدي (قال يوسف بحماس)
- أنا لا أفهم شيئاً
- لا تتعجل.. سأقص عليك كل شيء

جلس وطفق يقص عليه ما كان منذ أن قابل نيرة مراد وحتى لقاء ياسمين وأخذ يحدثه عن المجهود الهائل الذي بذله مع ياسمين كي تظهر بهذه الصورة أمام المالكي. وعندما انتهى من الحديث وضع يحيى يده على جبين يوسف قائلاً:

- هل أنت بخير؟

نزع يده بعنف وهو يقول:

- أنا بخير حال
- هل تمزح؟
- كلا.. والله
- والله! أتعني أن كل ما قلته قد حدث بالفعل؟

- نعم
- وقادمٌ أنت إليَّ بشهادة نجاحك! (قالها مستهزئاً)
- بالطبع.. لابد أن تقر وتعترف أن ما حققته نجاحا ساحقا (قال بنبرة طفولية مندفعة)
- بل هو جنون طائش

همَّ يوسف أن يتحدث فلم يمهله يحيى واستطرد قائلاً:

- متى سيُرَّد إليك عقلك يا صديقي؟ ما هذا الذي تفعل؟! أعرف جنونك وطيشك جيداً لكن إلى هذا الحد!! أن يصل بك الجنون أن تتلاعب بمشاعر الناس وعواطفهم وحياتهم! هذا ما لم أعرفه عنك ولا توقعته منك أبدا!
- آه.. ستصعد إذن على المنبر وتخطب فيّ كعادتك (قالها يوسف ساخراً)
- أنا لن أخطب ولن أعقّب.. افعل ما يحلو لك، ولا تشركني مرةً أخرى في لهوك.
- أتظنني ألهو؟!
- ما فعلته وقصصته عليّ للتوّ ليس سوى لعبة.. لعبة في يد طفل لا يدرك.
- كان عليّ أن أعرف مسبقاً أن نظرتك الضيقة للأمور سترى الأمر هكذا
- نظرتي أنا للأمور ضيقة!!
- طبعا.. إنك ما رأيتها سوى لعبة، ولكني أنا أراها أهم خطوة في مبادرتي التي بدأتها، بل أراها عوضاً عن كل المحاولات الفائتة، والوقت الذي أضعته مع بقية الأدباء، إنها أول ثمرة أجنيها، وبعدها أزرع بستاناً من الأشجار المثمرة.
- أنت تهذي!

- بل أنت الذي لا تريد أن تفهم، هل سألتني عن هدفي مما فعلته أنا وتنتقده أنت؟! كلا لم تسأل.. أتعرف لماذا؟ لأنك لا تريد أن تفهم.. تريد أن تنتقد فقط.. هذا هو كل دورك في الحياة.
- أسأل عن ماذا أيها المخبول؟! عن علاقة تحاول أن تقيمها بين فتاة ورجل، يكبرها بأربعة عشر عاماً!
- نعم.. ولكن لي هدف من هذا، هدف نبيل، أريد أن أزوجهما، وبذلك يكون زواج أول المثقفين المضريين على يدي
- ما شاء الله.. أتركت الصحافة واشتغلت خاطبة!!
استشاط يوسف غضبا وقال بحدة:
- إن استمر استهزاؤك بحديثي هكذا سأخرج ولن أعود ثانيةً
- هديء من روعك يا صديقي.. فأنت لست حديث العهد بأسلوبي وطريقة حديثي
- ولكن لكل شيء حد
- حسناً.. لا تغضب مني.. تكلم وسأسمعك، لكن هذا لن يمنعني من مناقشتك
هدأت ثائرة يوسف بعض الشيء وبدأ يشرح ليحيى في هدوء:
- إني أريد طفلاً.. طفلاً لهذا الرجل الذي لا نقيصة فيه ولا عيب، تخيل معي هذا الطفل، كيف سيُربى تربية سوية، وينشأ نشأة سليمة
- لكن يا صديقي ليس كل الآباء الصالحين لهم أبناء أسوياء، وهناك أمثلة كثيرة نراها ونشهدها
- إن الأمر ليس متعلقاً بالصلاح قدر ما يتعلق بالعقلية، والنفسية السوية
استطرد يوسف وهو شارد وعلى وجهه بعض علامات الكدر:

- قد يكون الأب صالحا لكنه لا يصلح أن يربي ابنه تربية نفسية سليمة، أما محمد المالكي فرجل مثقف واعي وأنا متأكد أنه سيعتني بنفسية أبنائه ويربيهم أحسن وأفضل تربية.
- ولكنك ذكرت لي منذ دقائق معدودة أن الرجل يبحث عن الحب، وربما لا يحب تلك الفتاة التي وضعتها أنت في طريقه، وبالتالي تُهدم فكرتك من أساسها
- سيحبها (قالها يوسف بتحدي وثقة)
- وما الذي يضمن لك هذا؟
- إنني علمتها كيف تجعله يحبها، وكيف تجذبه إليها على الطريقة التي يحبها ويرضاها، أطلعتها على كل اهتماماته في كل مجالات الحياة، علمتها كيف تتحدث، وماذا تقول ومتى تقول، والنتائج حتى الآن مبشرة.
- لكن القلوب بيد الله، هو وحده من يؤلف بينها، وقد لا يميل إليها الرجل
- إنه يعيش الآن مرحلة قاسية من حياته، لقد رأيت في عينيه اليأس والقنوط من الوحدة، وشعرت من كلامه أنه بحاجة إلى يدٍ رقيقة تربت على كتفه، ونظرة حانية تشمله بالحب، وشخص يشاركه الحلم والحياة والأمل، إن آلام الوحدة قد لوّعته، وقسوتها بدت ترتسم على قسمات وجهه. كل هذا يجعل من ياسمين ذلك النسيم العليل في ليالي الصيف الحارة، وجرعة الماء للتائه في صحراء شمسها حارقة، إنها آخر قشة تمر على غريق، ولا أمل بعدها في أي وسيلة للنجاة، وأكبر دليل على ذلك علاقتهما التي تتوطد كل يومٍ عن سابقه، فلا يمر عليه يوم دون أن يراها.
- وإذا أحبها الرجل وتزوجها، من يدريك أنهما سينجبان!

تلقى يوسف الجملة كصفعة على وجهه ثم قال كمن يصحو من غفوة:
- لم أفكر في أمرٍ كهذا ثم استدرك قائلا: لماذا تضع أمامي العقبات طول الوقت؟! سينجبان يا يحيى.. رغم أنفك سينجبان.
- إن هذا أمر بيد الله، يجعل من يشاء عقيماً
- ولكن الطب الآن لم يترك أحداً عقيماً، هناك حقن مجهري، وأطفال أنابيب، والعديد من الوسائل التي تحل مشكلة العقم
- إن الله إذا أراد أن يمنع فلا معطي، لا طب ولا علم ولا غيره
- أعرف أنك لا تحب الحلول، فقط تحب المشاكل
- اللهم طولك يا روح.. لقد صبرت عليك كثيراً
- أنت من صبرت عليّ! هل أنا الذي أسخر منك منذ أن دخلت بيتك؟!
- أنا لا أسخر منك يا يوسف، ولكني غير مقتنع بما تفعل، أنت حين طرحت عليّ فكرتك التي آمنتَ بها كنت تريد أن تصلح النشء، وتنشيء جيلا جديدا سويا حسن الخلق، ولكن الآن قد حصرت كل جهدك في زواج محمد المالكي من تلك الفتاة التي اخترتها له، هل سيتم حل تلك المشكلة بطفل أو أكثر سينجبهم محمد المالكي؟! إنها حالة واحدة لن تسمن ولن تغني من جوع، ولذلك فأنا أرى أنك تضيع وقتك فيما لا ينفع ولا يفيد، هو فقط وقت لطيف لتسليتك في تجنيد ياسمين وتدريبها كما يفعل رجال المخابرات.

غضب يوسف بشكل لم يشهده يحيى من قبل وصرخ قائلاً:
- ألا يوجد شيءٌ أفعله نافعاً في نظرك؟! أما من إنجازٍ أنجزته مفيداً؟! إنك دوماً تذَكّرني بأبي.. بل أنت هو تماماً، دائماً كنت في نظره فاشلاً، كان ينتقدني في كل شيء وأي شيء، منذ أن كنت طفلاً صغيراً، حتى في الثانوية العامة عندما حصلت على ستة وتسعين بالمائة، وفي ذروة فرحتي احتفل بي الناس جميعاً إلا هو.. وبَّخني، فكيف أخسر أربعة في

المائة!! لكنه أجاب على نفسه بنفسه قائلا: لأنك فاشل. لقد أفقدني ثقتي بنفسي، وجعلني أتشكك في كل كلمة شكر أو مدح توجه لي حتى الآن.

انتهى يوسف من حديثه والدموع تتلألأ في عينيه ويغالبها، ثم جلس كحطام جبل تهدم.

سادت لحظة صمت وهدأ يوسف بعض الشيء ثم استطرد بصوت متهدج:

- هل علمت الآن لماذا أسعى جاهداً أن يأتي للدنيا طفل يجد الحب والتشجيع والسعادة؟ أنا مستعد أن أنفق عمري كله في هذا، حتى لو كان كل ما أنجزته في حياتي هو طفل واحد يأتي إلى هذه الدنيا فيتمتع بالرعاية والاهتمام والقدوة الحسنة سأكون راضيا. (واستدرك في أسى) ربما عندما أراه وأشعر أني انتشلته من مصير مجهول، ووضعته في أيدٍ أمينة تستريح نفسي. ربما تمنيت أن أرى فيه نفسي.. ربما. أتعرف يا يحيى أني أخاف أحيانا بل أرتعد عندما أشعر بمسئوليتي تجاه تربية ابنتي، فأنا طول الوقت أشعر أني محطم، أخشى ألا أكون لها كما ترغب، أنا أدعو للتربية السوية لكن لا أعرفها، فمن أين لي أن أعرفها، وقد نشأت فيما نشأت من كبت وقهر وتدمير نفسي؟!

هال يحيى ما قد سمع، فهذه أول مرة يكشف فيها يوسف عما بداخله، إن هذا المسكين ضحية أبيه، الآن فقط أدركت اهتمامه بأمر التربية بهذا الشكل؛ كيف لم يعرف عنه شيئاً هاماً كهذا من قبل؟! ثم قال له وهو يربت على كتفه:

- أدركت يا صديقي وفهمت، لكن الأمور لا تسير هكذا، إنك لا تقدر على انتشال أحد من مصير كتبه الله له، ولا تقوى على وضعه في يد لم يمدها الله إليه، إن الأمر كله بيد الله، وليس بمقدور أحد من البشر أن

يزوج هذا، ويجعل تلك تنجب من ذاك، ويختار من ينجب ومن لا ينجب، إنها إرادة الله في خلقه، ونحن والأرض التي تقلنا والسماء التي تظلنا في قبضة يده جلَّ وعلا.

- ولكننا عباده، ولابد أن نتصف بصفاته، وننتهج بنهجه

- نعم.. لكن ليس لنا قدرته

- قدرته وضعها فينا هنا (يشير إلى رأسه) في هذا العقل الذي اختصَّنا به، وعلينا أن نحسن استخدامه.

- العقل مصدر الحكمة، والحكمة تختلف عن القدرة. إن الحكمة المطلقة والقدرة المطلقة له وحده.

- نحن أيضا لدينا حكمة ولدينا قدرة ولو بشكل نسبي

- أخشى أن تغتر بالقدرة فتفقد الحكمة

- لا تخش عليّ من شيء

- هل ستستطيع بالفعل أن تنفذ خطتك؟

- سترى

- وإن عاندتك الظروف؟!

- سأغلبها

- وإن عاندك القدر؟!

- لا تقلق، فكل شيء محسوب ومدروس، ولا مجال لثغرة ينفذ القدر منها!

- لا بد أن نتوقف عن النقاش حالاً، فأخشى إن أطلنا الحديث ثرثرت بما لا يصح الثرثرة به

- يحيى يريد أن يتوقف عن الجدال بإرادته! إن حدثاً عظيماً حتماً سيحدث في هذه الدنيا!

تعالت ضحكاتهم ثم عمَّ الصمت أرجاء المكان.

شيطان من السماء

جلست ياسمين ومحمد المالكي يتحاوران ويتناقشان، وكانت قادرة على مجاراته في حديثه وأفكاره بفضل ما تعلمته من يوسف أولا، وبفضل ذكائها وسرعة بديهتها ثانياً، فكم من مرة أخذهما الحديث إلى مناطق أبعد مما تعلمته من يوسف وكانت تستطيع أن تهرب ببراعة، وإن كان يوسف أيضا هو من علمها كيف تهرب من الحديث عندما يكون في أمرٍ لا تعرف عنه شيئاً، لكن بفضل موهبتها وملكاتها الفائقة تحسن التنفيذ دون أن تحدث في نفس محمد أي شك.

- ما رأيك في ما يدور الآن في فلسطين؟ سألها محمد على حين غِرَّة

كانت ياسمين تنتظر هذا السؤال منذ فترة، فقد أكَّد لها يوسف أنه لابد وأن يتحدث معها عن القضية الفلسطينية لأنه يعلم تمام العلم مدى اهتمام المالكي بالقضية، وكانت ياسمين جاهزة بالرد الذي لقنَّها يوسف إياه فقالت:

- أنا أرى أن أي حل دون إزالة إسرائيل لا محل له من البحث العلمي كما قال جمال حمدان

قالتها وهي لم تقرأ لجمال حمدان جملة واحدة، فذلك الكاتب الذي ثارت على مجلداته ذوات الثمانمائة صفحة، ورفضت قراءتها رفضاً قاطعاً، لكن يوسف قد رسم لها كل شيء.

نظر إليها محمد باعجاب شديد وقال:

- جمال حمدان! أنا مُغرَمٌ به.. هل أنتِ من محبيه؟

- أحبه! أنا بغضته عندما رأيت حجم كتبه (قالتها ياسمين في نفسها) ثم نطقت بطريقة تمثيلية قائلة:

- كم تمنيت أن أقرأ له لكن خسارة كبيرة!
- خسارة! لم؟!
مستمرة في التمثيل:
- حاولت كثيراً أن أقرأ كتبه، لكن لا أفهم منها شيئاً على الإطلاق، أجد فيها صعوبة كبيرة، ولم ألتقط سوى بعض الجمل السهلة، فتوقفت عن قراءته للأسف.
- نعم.. فكتبه ليست ككل الكتب، فهو كاتب موسوعي، لكن مجرد أن تحاولي بل وترغمي نفسك على قرائته وفهمه هذا شيء عظيم، واستدرك قائلا: إن شئت قمت بشرح هذه الكتب لك وتلخيصها وتبسيطها بشكل يجعلها سهلة مستساغة بالنسبة لكِ!
استنشقت ياسمين نفساً عميقاً صحبته ابتسامة عريضة، وفي داخل نفسها أخذت تثني على يوسف - كما تثني عليه دائما في كل حوار يدور بينها وبين محمد - إن هذا ما توقعه يوسف تماما، هو من قال لها تقول ما قالت، وأخبرها أنه في هذه الحالة سيتطوع لشرح الكتب لها دون أن تحتاج لقرائتها، وهذا ما حدث بالفعل، أي شيطان يسكن يوسف هذا يجعله يتنبأ بالشيء قبل حدوثه! وكأنه قد كتب سيناريو ونحن فقط نقوم بتمثيل مشاهده كما هي، والغريب أن هذا الأمر تكرر عدة مرات، وهذا يعني أنها ليست مصادفة، لقد أُرسل إليّ من السماء هذا الشيطان، وقطع صوت محمد حديثها مع نفسها قائلاً:
- هل شردتِ؟
- كلا.. لكني لا أصدق نفسي، أن تخصص لي جزءا من وقتك الثمين لتشرح لي!
- جزءٌ من وقتي فقط! إن وقتي كله ملكٌ لك

ابتسمت وقالت في خجل:

- شكرا
وبالفعل نفذ محمد وعده وكان يجلس ساعات يشرح لها ويتحدث إليها، لكنها ما كانت تستمع لما يقول، إنه حديث لا يهمها على الإطلاق، إنما كانت تشرد في قسمات وجهه، وحلاوة صوته، وقوة شخصيته، ولغة جسده التي تدل دائما على الثقة والثبات، وفي كل جلسة كان يزداد إعجابها، وتعلقها به. كم كانت تتمنى أن تخبر جميع صديقاتها أنها تقابله وتجلس معه وتتحدث إليه، تريد أن تتفاخر أمامهم، وتقول من منكم تستطيع أن تقترب حتى من سور مكتبه! لكن يوسف متشددٌ معها إلى أبعد حد، وهي رغم كرهها لتشدده هذا لا تستطيع مخالفته، فهو قد صدق معها في كل ما وعدها به، ولولاه ما كانت لتجلس الآن أمام هذا الرجل العظيم، من يصدق أنه يقابلها كل يوم، ويتصل بها كل ليلة، هذا الرجل الذي كانت كل تصرفاته محسوبة، من كان لا يلتفت لأحد مهما كان، الآن لا يحوِّل بصره عنها، ويلاحقها باهتمامه في كل وقت. ويظل الرجل يقول ويشرح، وتنظر هي في عينيه وتحرك رأسها بالإيجاب لتوحي له بالتركيز الشديد، وهي في عالمٍ آخر هو كل سكانه وقاطنيه.
مرت الأيام وازداد تعلق الرجل بالفاتنة التي ملأت عليه حياته، فقد انتابه شعور غريب بالسعادة ظهر على وجهه، وبان في سلوكه وتصرفاته، فقد أضحى يرى الناس بعين سعادته، يطيل الحديث إليهم، والمزاح معهم، وهذه ليست عادته. لقد بات يرى الدنيا كلها وقد أصبحت أكثر جمالاً، فإذا طلعت الشمس رآها أكثر إشراقاً، وإذا بزغ القمر وجده أكثر ضياءً، الزهور ألوانها زاهية، والنسيم دائماً عليل وإن شكا الجميع من حوله شدة الحر! ما أجمل هذه الأشجار! كيف لم يرَ فيها كل هذا الجمال من قبل! إن الطيور تغرد، والكون كله سعيد، إنه يعيش حالة غريبة عليه، لكنه سعيد بها إلى أقصى درجة، بل إنه سعيد لسعادته بها. لقد تغير كل شيءٍ من حوله منذ أن دخلت هذه الساحرة

دنياه، لقد وجد ضالته أخيرا، جاءته تبحث عنه كما تمنى، بل جاءته بأكثر مما تمنى. لقد أحبها.. لا يعرف متى أو كيف!

- ترى هل تحبني هي أيضاً؟

- أنا أشعر بذلك في كل حركاتها وسكناتها، في كلماتها وصمتها، في غدوها ورواحها.

- لكن الشعور وحده لا يكفي، ربما الأمر كله لا يتعدى الإعجاب بكاتب خاصة أنها تحب القراءة.

- لكن إحساسي لا يخيب، إنه الوحيد الذي لم يخذلني في الدنيا بعد، فلا أحسبه اليوم يخون العهد.

- وكيف لك أن تتأكد؟

- لابد أن أسألها

- وبعد أن تسألها!

- إذا صدق شعوري فسأطلب خطبتها على الفور.

- إنها تصغرك بأعوامٍ عديدة

- وما الضرر؟

- اعرض عليها الأمر إذن

- كيف؟ إني لا أعرف كيف! في كل مرة أنوي الكلام ينعقد لساني وكأنه قد التصق بحلقي

ظل محمد يحدث نفسه على هذا النحو إلى أن انتهى به الأمر أن جلس إلى مكتبه وأحضر قلماً وأوراقاً وطفق يكتب حتى الصباح، وهذه هي المرة الأولى التي يسهر فيها محمد حتى الصباح وهو الذي اعتاد النوم مبكراً.

مجنون ليلى

في الصباح الباكر حيث لا يوجد في المقهى أحد سواه دخلت عليه ياسمين بهية الطلعة كعادتها – وقد اعتادت على الاستيقاظ المبكر- جلست وهي تقول:

- صباح الخير

أجابها وهو هائم:

- صباح السعادة

نظر في عينيها ثم أردف قائلاً:

- ياسمين بجانبي.. كل شيءٍ إذن حضر

- كل شيء إذن حضر! هذا شعر.. نعم شعر.. لقنِّي يوسف إيَّاه، يا إلهي لقد نسيته، ما البيت الذي يليه؟ لا أذكر، لأيٍّ من الشعراء كان؟ لا أتذكر.

بدا على وجهها الارتباك وهي غارقة في حديثها الداخلي

- ياسمين.. كل هذا الارتباك من أجل بيت شعر! ما حسبتك تخجلين إلى هذا الحد!

اطمأنت بعض الشيء عندما فسر ارتباكها خجلا، لكنها مازالت تخشى أن يجرهما الحديث إلى هذا الشعر اللعين، فتظهر عدم معرفتها به، ففضلت الصمت

فقطع الصمت قائلا:

- عندما قالها قيس أجابته ليلى ولم تصمت مثلك هكذا؟!

- قيسٌ وليلى! تذكرت.. (تمتمت ياسمين وهي تتنفس الصعداء) ثم ابتسمت قائلة بمكر:

- أو نحن مثل قيسٍ وليلى؟!
- ولم لا؟ ألم يكن قيس شاعراً؟
- بلى
- ما ضره إن أضحى كاتباً؟
ضحكت ضحكة عالية جذابة ثم قالت:
- لكن احذر، فقد جُنَّ قيس بليلى
- ما أجمله جنونا!
- الجنون جميل؟!
- نعم.. فما فائدة أن يعقل الإنسان ولا يشعر؟ لقد عشت عمري كله بعقلي دون أن أحب، كنت أتعايش لا أعيش، إن الحب هو الذي يجعلنا نشعر أننا على قيد الحياة، فكم تمنيت أن أحيا بقلبٍ نابض وإن طار عقلي. أتعرفين يا ياسمين إن كل ما فات من عمري لا أذكر منه شيئاً، هي أيام وليالٍ تمر في روتين ممل وقاتل، ليس بها ذكرى تحيي القلب، ولا نشوة تسعده.
أرادت أن تطرق الحديد ساخناً فقالت بدهاء:
- وهل وجدت تلك النشوة أم مازلت تبحث عنها؟
قال في ارتباك واضح:
- لعلي أجدها
- إنه يلمِّح كثيرا فمتى يصرّح؟ تمتمت ضيقة الصدر، ثم أرادت أن ترد الحديث إلى قيس وليلى فقد تستطيع أن تنتزع منه كلمة من الكلمات التي تتمنى سماعها فقالت:
- ليتني كنت قادرة على إلقاء الشعر مثل قيسٍ (واستطردت بعد لحظة صمت ماكرة) أو ليلى
- لماذا؟
- لأنه الوحيد القادر على وصف الشعور كما ينبغي له أن يوصف

- وما هو شعورك؟
- أشعر بالسعادة والقلق، بالفرح والخوف، بداخلي تتضارب المشاعر، ولهذا تمنيت أن ألوذ بالشعر
قال متلهفاً مندفعاً:
- وهل تقلق الملائكة أو تخاف؟!
- كلماتك دائماً تطمئنني، منذ عرفتك وقبل أن أعرفك
- قبل أن تعرفيني!
- نعم.. كانت تطمئنني كلماتك المكتوبة، قبل أن أسمعها منك بأذنيّ
- وأيٌّ من الكلمات تفضلين، المكتوبة أم المسموعة؟!
- أحب الكلمات التي أسمعها وأنا أنظر في عينيك، فيختلط عليّ الأمر هل تسعدني الكلمات أم النظرات!!
لمعت عيناه وشعر كأن الدنيا لم تعد تتسع له بعد ثم قال:
- تمنيتي أن تكوني شاعرة فحقق الله أمنيتك في ذات اللحظة، إن ما تقولينه أشد حلاوة من الشعر، فأصبحت أنا الذي يحب كلماتك.
قالت وهي تتلاعب بشعرها في دلال:
- ألقِ عليَّ من شعر قيسٍ لليلى
نظر إليها في ذهول وارتباك ثم استجمع قواه وبدأ يلقي الشعر في وجدٍ:

لست ليلاي دارياً كيف أشكو وأنفجر؟
أشرح الشوق كله أم من الشوق أختصر؟

ألقى البيتان وتوقف فحدقت في عينيه قائلة:
- بل اشرحه كله
- ماذا؟
قالت وقد امتلأت عينيها مكرا وسحرا:
- أقصد أن تلقي مزيداً من الأبيات

فأنشد:

رب فجرٍ سألته هل تنفستِ في السحر
ورياحٍ حسبتها جرّرت ذيلك العطر
وغزالٍ جفونه سرقت عينك الحور

قاطعته وهي تضحك:

- كفى.. كفى.. لقد تصببت عرقاً..

وقفت مستعدة للرحيل ثم قالت:

- على فكرة كنت مثلك أتعايش لا أعيش، لكني صرت الآن أحيا بذلك القلب النابض، وإن كنت أخشى أن يطير عقلي.

ألقت هذه الكلمة وغادرت، وتركته شبه فاقد لصوابه. لقد كانت تتأكد من حبه يوما بعد يوم، لكنه لا يريد أن ينطق بهذا الحب، إن كل خلية في جسده تشير إلى حبه لها، ما عدا ذلك اللسان وإن كان يزل في بعض الأحيان ليدل على ما يخفيه صدره، لذلك كان لابد لها من المبادرة غير المباشرة، الهجوم كما علمها يوسف من قبل، وقد كانت هجمتها قوية وحاسمة.

وتوالت بينهما اللقاءات على هذا النحو، يحومان حول كلمات الحب ولا ينطقون بها، تمنت ياسمين لو بادرت لكنها لا تستطيع، فظلت تغالي في التلميح ليكون للتصريح أقرب، ومع ذلك بقي الوضع على ما هو عليه حتى جاءت تلك الساعة التي تلقت فيها مكالمة تليفونية من محمد يخبرها أنه موجود الآن أمام عمارتها، وطلب منها النزول إليه على الفور.

- عجبا.. لقد كنت معه صباح اليوم فماذا حدث إذن

حدثت ياسمين نفسها وهي تستعد للنزول إليه، وعندما نزلت إليه وجدته واقفا أمام سيارته وفي يده كتاب أعطاه إليها بمجرد أن رآها دون أن ينطق بكلمة، نظرت إليه في دهشة:
- أهي روايتك الجديدة؟!
- نعم.. أول نسخة تسلمتها للتو من المطبعة، ومن المطبعة إليكِ لم أنحرف يمينا أو يسارا، فما استطعت أن أنتظر حتى الصباح.
نظرت إلى اسمها وبدت المفاجأة على وجهها وقالت بنغمة جميلة عذبة لا تخلو من المكر:
- أهي تحمل اسمي أم أنه تشابه أسماء؟
- سأترك الإجابة لقلبك
- إن قلبي قد أجاب على كل سؤال منذ عهد بعيد، ولكن لم تصدر بعد شهادة نجاحه
ضحك محمد وقال لها:
- رفقا بي فأنا لا أستطيع أن أنازلك في الكلمات
- ملك الكلمات ومالكها يقول هذا؟!
- أمامك لا ملك ولا مالك، إن نظرة من عينيك تهدم أقوى الممالك.
ابتسمت وهي تقلب الكتاب بين يديها
- سأنتظر رأيك فيه على جمرات النار.
- ترى هل أنتقد رواية تحمل اسمي؟!
ضحك محمد ونظر إليها نظرة المعجب:
- اقرأي الكتاب أيتها الشقية وسأنتظر رأيك
هزت رأسها وأخذت الكتاب وصعدت عائدة أما هو فركب سيارته وانطلق.

عطر الياسمين

أسرعت ياسمين إلى يوسف وهي تكاد ترقص فرحاً، يتلألأ في عينيها بريقٌ لامع، وتشتعل في وجهها الحمرة التي تصحب السعادة والشغف والحماس، وعندما وقعت عينا يوسف عليها سألها عن سر تلك السعادة التي تبدو عليها فلم تجب بل أعطته الكتاب وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، تناول يوسف الكتاب ثم سألها ماهذا؟ أهي رواية جديدة لمحمد المالكي؟! فأجابته بفخر:

- نعم.. أول نسخة

نظر إلى الغلاف في دهشة وقال:

- "عطر الياسمين" الرواية تحمل اسمك!! أكتبها محمد المالكي لك أنتِ؟!

هزت رأسها في زهوٍ وقالت:

- نعم..

- هل قرأتِها؟

أجابت في شغف:

- لم أنم منذ الأمس بسببها، وبمجرد أن انتهيت من قراءتها جئتُ إليك في الحال.

- وماذا وجدتِ فيها؟

قالت بنبرة الحالم:

- وجدت السحر والجمال، الحب والدفء، السعادة والحياة، وجدتُ فيها كل شيء.

- أوجدتِ فيها كل هذا؟
تتناول ياسمين الرواية من يده وتقلب صفحاتها حتى تستقر على صفحة بعينها ثم تعيدها إلى يوسف قائلة:
- اقرأ هذه الأسطر
يقرأ يوسف بصوت مرتفع:
"وبمجرد أن همست لي باسمها حتى شعرتُ برائحة الياسمين تفوح في أنفي، وجمال ونضارة زهرته تلوح لعيني، وهفيف النسيم وهو يداعبها يتردد في أذني، فقد سافرت بي إلى عالمٍ آخر، فإن نطقها للكلمات ليس كمثلنا نحن بني آدم، وإنما تنطقها على طريقةٍ ملائكيةٍ لم تسمع الآذان مثلها من قبل.. ياسمين وهي كالياسمين أو أشد سحراً".
انتهى يوسف من القراءة وقد بدت على وجهه الدهشة:
- الله.. الله ما كل هذا يا ست ياسمين!! لابد أن هناك أساليباً أخرى تتبعينها بجانب تعليماتي.
- نعم.. أساليب لا تستطيع أنت ولا أي رجلٍ مثلك أن يفقهها، هي أساليب حواء، التي إذا أرادت فعلت.. حواء التي تستطيع أن تحرك كل ساكنٍ دون أن يتحرك منها ساكنٌ، التي لديها القدرة أن تشعل الأرض نيراناً، كما تستطيع أن تجعلها برداً وسلاماً.
- يبدو أن صحبتك لمحمد المالكي قد جنت ثمارها
- لا فأنا من قبل أن أعرف محمداً وأنا أؤمن بقدرة المرأة على تحقيق أي هدف تريده، ومدركة مدى قوتي لمجرد كوني امرأة.
- كنتُ على حق عندما اخترتك لهذه المهمة
- أنت لم تخترني بعد يا سيد يوسف، بل وضعني القدر في طريقك، أو وضعك أنت في طريقي.
- لك الله يا محمد.. لك الله يا مالكي قالها يوسف وهو مغلوبٌ على أمره.

صدرت عنها ضحكة مدوية ثم أردفت:
- أنت لم تقرأ بقية الرواية بعد، اقرأ هنا أيضا. قالتها وهي تشير لأسطرٍ أخرى بالكتاب.
شرع يوسف في القراءة ولكن هذه المرة بصوت خفيض:
" تسعة وثلاثون عاماً خلت من عمري ما وجدت فيها ذلك الحب الذي طالما بحثتُ عنه ولم يبحث هو عني، حتى جاء عامي هذا الذي قابلتُك فيه، فقد وجدت فيكِ كل ما كنت أبحث عنه، وكل ما تمناه قلبي، إن كيوبيد قد فعل معي فعلته، لكنه صوَّب إليّ سهمه عن طريق يدٍ رقيقةٍ كيديكِ، وعلى الرغم من رقتها هذه فقد انهار أمامها حصن قلبي الذي طالما حسبته منيعاً، إن قلبي لم يعرف الاستسلام يوماً فكيف ألقى أمامك بكل أسلحته!! إني أحببتك.. نعم أحببتك.. أقولها بقلمي لأن لساني قد عجز عن قولها، وعسى أن تشفع شجاعة قلمي لعجز لساني. إني أعلم تمام العلم أن كل إنسان على وجه هذه الأرض لتشرح صدره كلمة حب، ويسُّر قلبه التلميح بالحب، لكن التمسي لي العذر يا عزيزتي فأنا لم أعرف كيف تُنطق ومتى تُقال فإني ما قلتها لأحدٍ قبلك، ولأن قلبي حديث العهد بمثل هذه المشاعر التي فاضت عليه فجأةً كأمواج البحر المتلاطمة، فما كان قلبي مراهقاً يوما حتى في أيام الصبا، ولا عرف الحب حتى في أيام الشباب".
رفع يوسف رأسه بعد أن أنهى قراءة الفقرة وظل صامتاً لحظات ينظر فيها إلى عيني ياسمين ثم سألها:
- هل تحبين محمداً حقاً يا ياسمين؟
أسرعت بالإجابة:
- ومن ذا لا يحب محمداً؟! ثم استدركت قائلة:
- لم تسأل هذا السؤال الآن؟

- لأنه أحبك حقاً، واستطعتِ أنتِ أن تحيي تلك الأحاسيس الجميلة في قلبه. إني أراه الآن يكتب كما لم يكتب من قبل، إن كل كلمة كتبها تنبض بالحب، وبعد كل هذا إن لم تكوني جادة في حبك فسوف يُصدم هذا الرجل صدمة لا نتوقع عواقبها، وهذا ما لا أرتضيه لهذا الإنسان النبيل الرقيق.

ردت عليه معترضة:

- أتقول هذا وأنت تعلم مدى حبي له من البداية، قبل أن يحبني هو بل حتى قبل أن يراني.

- هناك فرق بين الإعجاب والحب، في البداية كنتِ معجبةً به، حريصة على التعرف عليه وأنتِ لا تعلمين عنه شيئاً، لكن الآن فقد عرفتِه عن قرب، قد يبقى إعجابك به كما هو أو ربما يزيد، لكن الحب.. الحب الذي وصفه في كتابه هذا ما أسأل عنه.

- بل أحبه.. أحبه من كل قلبي، إن محمداً رجلٌ نادر الوجود، من يراه عن بعد يخافه، يهابه، يحذر التعامل معه، لكن من يعرفه عن قرب يرى مدى الحنان والعطف والحب القادر على إعطائهم، ومدى الصدق والشرف والمروءة الذي يتحلى بهم، وكيف هو رجل سوي متسامح متصالح مع نفسه ومع الآخرين، إني دائماً أشعر أنه هدية إلهية منحها القدر لي، وهو صنيع سأظل ممتنةً لك عليه ما حييت، وأشكر الله الذي جعلني أعترض طريقك يوماً لأحظى بهذا الرجل الذي قلما يجود الزمان بمثله.

- طمأنتي قلبي وأرحتي عقلي (قالها يوسف بعد أن التقط أنفاسه)

سر القلب

كان اللقاء هذه المرة ليس ككل لقاء فقد أقبل كل منهما على الآخر فتكاشفا وأفضى كلٌ بمكنون قلبه وتفجر ينبوع الحب كما تتفجر العين الجارية وغرق كل منهما في عذب الكلمات وحلو المشاعر وسحر النظرات والهمسات التي تعزف على أوتار القلوب؛ و افترقا وكل منهما يحمل في قلبه نصيب كل مخلوقات الدنيا من السعادة، عاد الأستاذ إلى منزله هائماً غير مصدق ما قد حدث، يشعر أنه طفلٌ ينبض قلبه من السعادة في ليلة عيد، ينتظر ما يحمله له الغد من بهجة وسعادة ومرح. لا يستطيع النوم شوقاً، ولا يتحمل السهر وطول الانتظار، إن السعادة قد عرفت طريقها إليه أخيراً، ووجد من كان يحسبها مجرد خيال في رأسه لا وجود له. نسجها له القدر بشرا ليس كبقية البشر، وأرسلها من أجله خصيصاً، هل أستحق كل هذا الكرم يارب، أعرف أني قد صبرت كثيراً، وكان عطاؤك أكثر وكرمك أوسع، يارب لا تحرمني من هذه السعادة.

و كانت سعادة ياسمين أيضا لا توصف بعدما صرح لها محمد بحبه أخيرا وبعد عناء طويل. عادت إلى بيتها وهي تدور حول نفسها كالفراشة، لقد اشتركا في السعادة وإن اختلفا في الشعور، فقد كان شعوره شعور ظمآن كاد أن يحترق كبده من العطش ثم وجد شربة ماء عذب، أو شعور من صادف نسمة عليلة في ظهيرة يوم صيفي حار تحت أشعة الشمس الحارقة. أما هي فتشعر بلذة الانتصار، سعادة من اقتنص طيرا فتمكن منه تمكينا، تشعر بقوتها وأنوثتها وقدرتها على فعل أي شيء في الدنيا،

لقد كان شعورها يجمع بين نشوة الحب ولذة الانتصار وأي شيء يتمناه القلب بعد ذلك!

.....

أخذ محمد ينتظر قدوم ياسمين حتى رآها تعبر بوابة المقهى في ثوب أنيق؛ ثم جلست وهي تقول:

- هل تأخرت كثيرا؟

- كثيرا جدا.. سنوات عديدة

- ماذا؟!

- ما ضرك إن قابلتني منذ سنوات؟

- سنوات!

- نعم.. كلما نظرت في عينيك ندمت على سنوات عمري الفائتة وقلت لنفسي أين لي بها منذ زمن؟!

- ربما إن التقيت بي منذ زمن لم ألفت انتباهك بعد

- كيف وقد سحرتني منذ اللقاء الأول!

- كان الوقت سيكون غير الوقت، والظروف غير الظروف

- لكن السحر لا يبطله الوقت ولا تمحيه الظروف. فالسحر سحر، لا يبطله سوى الساحر نفسه، والعينان اللتان تقدران على السحر لا تحملان في طياتهما تعويذةً لفكِه.

- لا أقدر على مجاراة شاعر

- لقد وقع الشاعر في الأسر، فمن ذا ينقذه؟!

- أريد أن أسألك عن شيء؟

- ما هو يا حبيبتي؟

- لماذا أحببتني؟ (سألته وكأنما تريد أن تثبت لنفسها شيئا)

قال ضاحكاً:
- ألا تعلمين أن هذا السؤال ليس له إجابة منذ خلق الله الحب والمتحابين!
- كيف ليس له إجابة!!
أردف قائلاً:
- إن الحب يا حبيبتي لا يُعرف له سبب، فالحب هو سر القلب، والقلب سر الله، فأمره بين يديه وحده، وسره لا يعلمه غيره سبحانه وتعالى
- إذن لماذا اخترتني أنا من بين العديد من الفتيات اللواتي قابلتهن في حياتك ومازلت تقابلهن حتى الآن، ولن أبالغ إن قلت أن كلهن يتمنون منك نظرة رضا.
ضحك ضحكة مدوية وقال:
- كلهن!! ولا تبالغين! حسناً
- أجب على سؤالي ولا تتهرب.. لماذا اخترتني أنا؟!
- أنا لم أخترْكِ يا صغيرتي
- ماذا؟
- نعم.. أنا لم أخترك، وإذا كان الأمر موكولاً للاختيار لكنت اخترت منذ سنواتٍ خلت، وكفيتُ نفسي مرارة الوحدة طيلة هذه السنوات، (مردفاً بعد تنهيدة كبيرة) إنما أنا كنت أنتظر.. أنتظر تلك الفتاة التي تقتحم قلبي، وتملك لُبِّي، وتحتل عقلي.. تجذبني، تخطفني، تسرقني من نفسي، تلك التي أشعر معها أني مسلوب الإرادة، لا حول لي ولا قوة، يتملكني حبها حتى وإن فررتُ منه هرباً. وهذا ما وجدته فيكِ، فقد أسرتِني، والأسير لحظة وقوعه في الأسر لا يعقل ولا يفكر، وأنا قد ارتضيت الأسر مذعناً راضياً دون أن أسأل عن أسباب ولا أفكر في نتائج.
ترقرت في عينيها دموع الفرحة وقالت:

- ألا توجد صفة بعينها جذبتك إليَّ؟!
- إذا قلتُ قد جذبني جمالك أو عقلك أو ثقافتك أو أي صفةٍ كانت أو أي سبب كان، سيكون لحبي سبب، والحب كما قلت لكِ منزهٌ عن كل سبب، فإذا أحببتك لسبب ما كنت لكِ محباً تمام الحب.
- لست أفهم
- أنتِ قارئة جيدة.. أليس كذلك؟!
قالت في ارتباكٍ ظاهر:
- بلى.. بلى.. طبعاً
- أتعرفين ماذا قال العقاد عن تلك المسألة؟!
زاد ارتباكها فاستدركت قائلة:
- لابد أنني أعرف ولكن لا أتذكر
- لا بأس.. سأذكرك أنا بتلك المقولة العظيمة وأردف يقول:
"إذا ميَّز الرجل المرأة بين جميع النساء، فذلك هو الحب. إذا أصبح النساء جميعاً لا يُغنين الرجل ما تغنيه امرأة واحدة، فذلك هو الحب، إذا ميَّز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء، ولا لأنها أذكى النساء، ولا لأنها أوفى النساء، ولا لأنها أولى النساء بالحب، ولكن لأنها هي هي بمحاسنها وعيوبها فذلك هو الحب".
- الله.. إنه لقولٌ بديع (قالتها في تأثرٍ وإعجابٍ بالغ)
- فهمتي ما قصدته إذن؟
- نعم فهمته عن ظهر قلب
- رحم الله العقاد، فقد أوضح لك بكلماته ما عجزت كلماتي عن توضيحه.
قالت مندفعة:

- بل إني لم أجد في حياتي كلمات تعرف طريقها إلى قلبي مثل كلماتك، ولم أقابل ما هو أشد منها تأثيراً على نفسي وعقلي وروحي.
(مستدركة): ولكن لماذا لم تسألني أنت عن الشيء الذي أحببته فيك كما سألتك أنا؟!
قال بهدوء وثبات:
- لا.. لن أسألك ولا أريد أن أعرف.. يكفيني شعوري بحبك لي، فأنا أكتفي به.
- عجيبٌ أمرك.. كيف لا ينتابك الفضول لمعرفة تلك التفاصيل؟!
- إن حياتنا قصيرة فلِم نضيع الوقت في تفاصيل قد تشوِّه معالم سعادتنا بشكلٍ أو بآخر؟! وأنا قد ضاع من عمري ما يكفي ليجعلني أكثر حرصاً على ما تبقى منه.
- عمر مَن هذا الذي ضاع!! إنك ما زلتَ في ريعان الشباب
قال بنبرة يملؤها الحب ويشوبها بعض الحزن:
- إن عمري قد بدأ عندما قابلتك
تضحك وهي تقول:
- من حسن حظي أني أحببتُ شاعراً
كانت بسؤالها له تنتظر أن تسمع منه جوابا غير هذا وبالرغم من ذلك فقد أسعدها ما قد سمعت بل كادت تطير من الفرح.
وهكذا أضحت لقاءاتهما كلها سعادة وحب، وكانت ياسمين قد تحررت من الكثير من الأشياء لكن في حدود، فعادت ترتدي ملابسها المعتادة، وخلعت عن كاهلها الكعب الذي كان يؤرقها، ولم تعد تتحفظ في الكلمات كما كانت من قبل، وبمرور الوقت ضاقت ياسمين بالقراءة خاصة بعد التطورات التي تحدث بينها وبين محمد يوما بعد يوم، لكنها مازالت مستمرة، فيوسف غير متهاون، وعليها اتباعه حتى النهاية.

نهاية البداية

كان الجو هادئا هذا المساء، والنسيم عليل، والهدوء يعم النادي على غير العادة، وكأنه سكون يسبق العاصفة، جلست ياسمين تتصفح هاتفها في نشوة وسعادة، ولكن صوتا ما نطق باسمها على مسافة قريبة:

- أهلا ياسمين هانم

بمجرد أن رفعت رأسها انتفضت من مكانها مذعورة قائلة بصوت مرتعد:

- محمد! كيف عرفت مكان النادي هنا؟!

(فقد كانت ياسمين تخفي عليه مكان النادي لأنه ملتقاها بيوسف).

- أهو سرٌّ؟!

أجابت بتوتر شديد:

- كلا.. كلا بالطبع

فاستدرك قائلا:

- أم أنه مكان لقائك بيوسف؟

خفق قلبها حتى كاد أن يتوقف، وتسارعت دقاته واشتدت كأنما طائر يرفرف بجناحيه بين أضلعها ثم قالت في توتر بالغ:

- يوسف! من يوسف؟

- ألا تعرفين من يوسف؟ يوسف الصحفي.. يوسف الذي تآمرتي معه ضدي..

- من أخبرك؟

- هذا كل ما يهمك! أشيطانة أنتِ؟ لابد أنك شيطانة من جنود إبليس اللعين.. إبليس الذي كنتِ تتبعينه لتوقعي بي، ما كان ظنكما بي؟ (ممسكا

بذراعيها) أخبريني.. ما كان ظنكما بي؟ طفل أحمق.. رجل ساذج.. أم دمية تخترعون منها لعبة مثيرة تلهيان بها! أي شيطانين أنتما!! وإن كانت الشياطين بجواركما ملائكة، فالشيطان له هدف من غواية الإنسان.. يريد له النار والعذاب حقدا عليه وغيرة منه، أما أنتما فلماذا أردتما لي العذاب وسعيتما لتشعلا حولي النيران في كل مكان وما رأيتما مني يوما ما يسوؤكما أو يوغر صدوركما؟! لقد انتزعت الرحمة من قلوبكما إذا كانت لكما قلوب! لكنها النار التي خُلق منها الشيطان هي التي ستحرقه يوما ما، كما سيحرقكما الحقد والغل والقسوة الذين فطرتما عليهم.

- أرجوك اسمعني.. سأشرح كل شيء لك...

- اخرسي..

أمسك بروايته التي سماها على اسمها ونظر إليها قائلا: كم كنت مغفلا!! ثم ألقاها على وجهها فارتطمت به رطمة قوية أيقظتها منتفضة من سريرها، تتلفت حولها في كل مكان، فلم تجد محمدا ولا النادي ولا أي شيء. أدركت أنها كانت في حلم مزعج فجلست ساكنة وصدرها يعلو ويهبط كمن كان يعدو هربا من وحشٍ مفترس. رن جرس الهاتف وهي لم تتخلص بعد من حالة الفزع تلك، نظرت إلى الهاتف فإذا به محمد المالكي. انتابتها رعشة قوية حتى إنها كانت ترى الهاتف يتأرجح صعودا وهبوطا في يدها، تلك المكالمة التي تنتظرها يوميا - وإن تكررت عشرات المرات- بقلب ينبض فرحاً، تستقبلها الآن وقلبها ينبض هلعاً.

- لا.. لا.. تشجعي، إنه كابوس بغيض، لا تخلطي الحلم بالواقع. (قالت لنفسها قبل أن ترد على مكالمة محمد)

- صباح الخير يا حبيبي (قالت بصوت خافت محاولة أن تجمع شتات أمرها)

- لا تقولي حبيبي (قالها بحدة)
اعتدلت في جلستها وقالت:
- محمد! ماذا بك؟
- أما تعرفين ماذا بي؟
- كلا
- ستعرفين عندما تأتي إذن
زاد توترها وارتباكها فقالت:
- أخبرني ماذا يغضبك.. فأنا لا أستطيع الانتظار حتى ألقاك
قال بتهكم واضح:
- مسكينة أنتِ.. لقد أثرت شفقتي وعطفي
- محمد.. هذه أول مرة تحدثني هكذا
- وأنا ما توقعت منك هذا
- ماذا فعلت إذن؟!
قال بصوت جاف:
- قلت لك ستعرفين عندما نلتقي.. هيا انهضي سأنتظرك في المقهى
- الآن!
- نعم.. الآن.. لا تتأخري
انتهت المكالمة بعدما أنهت على ما تبقى من ياسمين، خاصة بعد تلك الليلة التي قضتها في ثنايا هذا الكابوس المخيف. لقد انهارت قواها، وبدأت تشعر أن ما كان ليس أضغاث أحلام، وإنما هي رؤية تتنبؤ بما سيحدث خلال ساعات قليلة من الآن. ماذا تفعل؟ من يغيثها؟ لا أحد.. لا أحد اليوم يجيرها مما هي مقبلة عليه. إن تلك هي المرة الأولى التي تتباطؤ فيها عن لقاء محمد. إنها تتمنى لو ألغي الموعد، أو لو أنها تعللت بالمرض كما كانت تفعل في طفولتها كي لا تذهب إلى المدرسة.

ترى ماذا يريد؟ وما الذي أغضبه؟ هل عرف شيئاً؟ لكن من أين له أن يعرف؟ إنه أمر لم يعرفه أحد سوى أنا ويوسف.. ويوسف مستحيل أن يفعل هذا.. فمن إذن؟ أتكون سكرتيرة مكتبه؟ إنها تعرفني.. لذلك حرصت ألا أذهب إليه في مكتبه نهائيا. أيكون قد أطلعها على صورة لي؟! لكنها لا تعرف ما بيني وبين يوسف. آه رأسي سينشق إلى نصفين.. إن لم يكن قد انكشف أمري فماذا إذن؟ وما سر هذه العجلة إلى اللقاء؟ إن لقاءنا دائما بموعد مسبق فماذا حدث اليوم؟

كلها أسئلة طرحتها ياسمين على نفسها أثناء طريقها إلى محمد، حتى وصلت إليه أخيرا شاحبة اللون.. باردة الأطراف.. خافقة القلب.. فاقدة الأعصاب. جلست أمامه كالطفل المذنب، ولم تنطق بأية كلمات بعد جملة صباح الخير التي همست بها همسا، نظر إليها نظرة لم تفهمها ثم قال:

- لن أغفر لك ما فعلتيه أمس

راعها قوله فلقد كانت مع يوسف بالأمس، فقالت بصوت مرتعد:

- فعلت! ماذا فعلت بالأمس؟

- لماذا لم تتصلي بي؟

- ماذا؟

- ألم نعتد أن نتحدث كل ليلة؟

لم تصدق ياسمين ما سمعت، أهذا أيضا حلم؟! أم أنها مازالت تهذي من جراء تلك الليلة السوداء التي قضتها؟!

- لماذا لا تجيبي؟ ما هو الأمر الجلل الذي فضلتيه على مكالمتي؟

التقطت ياسمين نفسا طويلا عميقا فقد كانت كمن أُلقي من برج عالي وظل يهوي إلى الأرض وتتقاذفه الرياح حتى إذا قارب رأسه على الارتطام

بالأرض تلقفته الأيدي وأنقذته من موت محقق. بدأت تعود إلى صوابها ثم نظرت إليه قائلة:

- أهذا ما أغضبك؟

- وهل هذا هين؟ ألا تعرفين أن صوتك هو ما أختم به ليلي، فتكون ليلتي رائعة ونومي هادئا وأحلامي سعيدة. لقد افتقدت كل هذا ليلة أمس.

تنهدت ياسمين تنهيدة طويلة:

- حرام عليك.. لقد أفزعتني مكالمتك، وكنت أحدث نفسي طوال الطريق حتى كدت أجن.

قال مستنكراً:

- أفزعتك مكالمتي؟!!

- نعم

- إن قولك هذا هو ما أفزعني حقا.. كيف يسبب لك صوتي فزعا، وكيف تنتظرين لقائي بكل هذا التوتر والقلق؟! أبعد كل تلك الفترة لا تأمنين جانبي؟ هل سبق أن صدر مني شيئا يفزعك أو يقلقك؟!

- كلا

- لماذا إذن يا ياسمين؟! ما كنت يوما لأسبب لك خوفا أو فزعا يا حبيبتي، إن ما أسعى دائما أن أقدمه إليك هو الأمان فكيف تفتقدينه في جواري؟!

قالت محاولة تدارك الموقف بسرعة:

- مهلا يا محمد.. ليس الأمر هكذا، لقد فزعت خوفا من أن يكون قد أصابك مكروه لا قدر الله. (واستطردت قائلة):

- يا محمد! إني ما عرفت للأمان معنى إلا بعدما قابلتك، إني لأجد الأمان في نظرة عينيك.. في نبرات صوتك.. في ضحكاتك وهمساتك، إنك أمان لي ولكل من تعرفهم، فأنت مصدر الأمان لكل من يحيط بك.

ابتسم محمد في تأثر واضح ثم قال لها بنبرة ضاحكة:

- لقد ظلمتك إذن
- ظلماً بيِّناً
- وكيف أكفر عن ذنبي؟
- فلتحكم على نفسك
- حكمت
- بماذا حكمت؟
- ستعرفين لحظة النطق بالحكم
- ومتى تنطق بالحكم؟
- غدا في الثامنة مساءً سأحضر إلى بيتك وأنطق بالحكم على نفسي في حضور والدتك.

نظرت في عينيه وقلبها يخفق ووجنتاها كادا يقطران دما من شدة احمرارهما. واستدرك هو حديثه قائلا:

- ترى هل تراني والدتك جديراً بالزواج من ابنتها؟

قالت وعيناها تنطق بالفرح:

- محمد! أحقا ما تقول!
- لقد طلبت مني الحكم على نفسي وقد حكمت
- أهو حكم نهائي؟

هز رأسه قائلا:

- نعم.. حكم نهائي، لا نقض فيه ولا استئناف

الفراق

حضر يوسف إلى النادي في الموعد المحدد فأدهشه حضور ياسمين قبله وهي التي اعتادت التأخير، واعتاد هو انتظارها، جذب الكرسي بإحدى ذراعيه وهو يقول:

- لقد نجحت في تغيير الكثير من عاداتك اليومية إلا الالتزام بالمواعيد فهذا ما لم أقدر عليه، فماذا حدث في العالم اليوم حتى تصل ياسمين قبلي وقبل الموعد المحدد بيننا!

- حدث ما كنا ننتظره أنا وأنت

أطرق لحظات ثم قال:

- حقا! أتريدين أن تقولي..

قاطعته قائلة:

- لقد زارنا محمد بالأمس، وتقدم لخطبتي

اختطفت هذه العبارة قلب يوسف، لكن وجهه لا يزال جامدا، لا يدري الناظر إليه إذا كان قد فاجأه الخبر أم لم يفاجئه! وبعد لحظات صمت طويلة نطق:

- كنت أنتظر حدوث هذا بين الحين والآخر

- وها قد حدث ما كنت تنتظره

- ماذا بك؟ ليس هذا الوجه الذي توقعت أن أراه منك وأنتِ تزفين إلي خبرا كهذا!

- أي وجه كنت تتوقع أن ترى؟

- توقعت أنك ستطيرين فرحا

- بل أنا كذلك.. أطير فرحا

- لا يبدو عليك ذلك!

- لقد أخبرني محمد برغبته في خطبتي منذ يومين، فرحت فرحة عارمة لا شك، وطرت من سكرة الفرح والنشوة، ولكن سرعان ما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.
- أية فكرة هذه؟
- أنت الوحيد دون جميع البشر من يعلم كم شقيت أنا وأنت من أجل تلك اللحظة
- هذا لا شك فيه
- والآن وفي عز فرحتي بنيل ما تمنيت، يقتلني القلق والخوف
- لا تقلقي.. بعد هذه الخطوة لا شيء في الدنيا يقلقك
- بل هي تلك الخطوة التي تقلقني
- كيف؟

قالت على استحياء:

- إني أخشى على علاقتي بمحمد من علاقتي بك، لابد أنك تفهم ما أقصده، فأنا أعلم جيداً ما الذي قدمته لي في هذا الشأن، فأنت من بني لي الجسر الذي عبرته إلى قلب محمد، ولا حاجة لي أن أقول لك ما يمكن أن يحدث إذا علم هو بذلك.
- يعلم ماذا؟ مستحيل أن يعلم شيئا، وإلا ضاع كل شيء وانتهى
- نعم.. يضيع كل شيء وينتهي
- ومن أين له أن يعرف؟! إن هذا الأمر بيني وبينك ولا ثالث لنا!
- لذلك لم يعرف شيئا طول الفترة الماضية، فكنا نلتقي بعيدا عن سمعه وبصره، إنني حتى الآن لم أدله على مكان هذا النادي، حتى يظل مكانا آمنا لنا، أما الآن وقد قاربنا على الزواج، وسيشاركني فيما بعد الحركات والسكنات! (توقفت عن الكلام)

أطرق وبدا على وجهه الشرود

- كم ترددت أن أفصح لك عن هذا الأمر، لكن لا مفر الآن من ذلك.
كان يوسف يفهم جيدا ما كانت ترمي إليه ياسمين، لكن أبى لسانه أن يبادر بها.
استرسلت ياسمين:
- لابد أن ينقطع كل اتصال بيننا
لم تفاجئه الكلمات لكنها أفزعته
قالت بنبرة هادئة:
- هذا ما فيه صالحي وصالحك، أم تريد بعد كل هذا الجهد أن يذهب ما فعلناه هباءً!!
مستسلما:
- لا طبعا.. من يريد هذا! ولكن..
قالت بحماس:
- لكن ماذا؟ ألم يتحقق ما تمنيت وسعيت أنت وأنا من أجله، ألم تقل لي أن هدفك الوحيد هو زواجي بمحمد! وبزواجي منه تكون قد أتممت مهمتك! فما حاجتنا بعد هذا إلى لقاء أو اتصال؟!
قال بتأثر:
- هي حاجتي أنا وحدي، فإني بحاجة أن أتفقد أخباركما، هل أنتما سعداء؟ هل أنجبتما؟ ذكراً أم أنثى؟ أليس من حقي بعد كل هذا الجهد أن أتذوق ثمرة جهدي؟
أجابته برفق:
- حقك ولا شك، لكن بهذه الطريقة لن يكون هناك ثمرٌ ولا زهر، وسيضيع كل جهدك إذا علم محمد ذات يوم أو إذا ساوره مجرد شك فيما كان بيني وبينك، وقد يعوضك عن ذلك أن محمدا كاتب مشهور فستجد أخباره في كل مكان.

هز رأسه بالإيجاب وعلى وجهه بعض علامات الوجوم
- إذن تعدني ألا تتصل بي مجددا لأي سبب كان؟
- أعدك (قالها كالمحتضر)
شعرت بأمان وراحة بعد هذه الكلمة ثم أردفت قائلة:
- بقي لي عندك إجابة سؤال واحد، رغم أني لا أصدق أنه آخر سؤال سأسأله لك، وبعدها ينتهي كل شيء!
- ما هو؟
- لماذا فعلت كل هذا؟ لقد وعدتني أن تجيبني في الوقت المناسب، وها نحن لم يتبقى لنا وقت لا مناسب ولا غير مناسب
ابتسم ابتسامة شاحبة ثم قال لها:
- إن محمداً صديقٌ عزيزٌ وصاحب فضل، كنت أتمنى له حياة سعيدة هادئة خاصة أن الوحدة كانت تشقيه، فسعيت أن أزوجه وكان هو رافضا للزواج، وقد حدثت بيني وبينه قطيعة لهذا السبب، فأردت أن أفعل هذا دون علمه ودون أن أظهر في الصورة.
- أما زالت تلك القطيعة قائمة؟
- نعم
- ولكنك..
قاطعها قائلا:
- أعرف.. قلت لك أننا أصدقاء، وهذا ما جعلك تستجيبين لي، ولو قلت لك الحقيقة وقتها ما كنا لنصل إلى تلك الجلسة التي نجلسها الآن
- وكنت كلما سألتك عنه قلت لي أنك لا تلتقي به بسببي أنا، وحتى لا ينكشف أمرنا!
هز رأسه بالإيجاب
- لقد كان هدفك نبيلا إذن

- أنبل مما تتصورين (قالها بحرارة بالغة)
- لم أجد من الكلمات ما يعبر عن شكري وامتناني لك أيها الصديق النبيل، لقد وعدت فأنجزت، وبذلت جهدا بالغا من أجل صديقك ومن أجلي أنا أيضا؛ كم شرفت بمعرفتك، ويعلم الله لولا ما تعلمه من حساسية الوضع ما كنت لأنقطع عن مودة شخص في مثل كرمك وشهامتك ونبلك.

ابتسم يوسف عين الابتسامة الشاحبة وقال:

- كنت أتمنى أن أحضر زفافكما

سكتت وقد تغير لونها

- لا تقلقي يا عزيزتي، ذكرت لك أن بيني وبين محمد قطيعة فكيف لي أن أحضر الحفل؟!
- أرجوك لا تغضب مني فأنا..
- لا عليك.. لقد علمتك الحرص حتى أصبحت أحرص مني
- وأنا أشرف بكل ما تعلمته منك

لمعت عيناه:

- شكرا يا ياسمين.. شكرا على كل شيء

رن هاتف ياسمين فاضطربت بعض الشيء عندما أمسكت به ثم قالت:

- إنه محمد، أرى أن أنصرف الآن..

مدت يدها تصافحه وهي تقول:

- وداعا

صافحها ويده باردة كالثلج أو أشد بردا وقال بصوت متهدج:

- أراك على خير يا ياسمين

غادرت وانتاب يوسف شعور غريب لم يشعر به من قبل، لقد انتهى كل شيء في لحظة؛ فما عاد يلقى ياسمين مرة أخرى؛ تلك الفاتنة التي

كانت تملأ حياته مرحا، لقد اعتاد ضحكها وهزلها، اعتاد جدالها وضجرها، أحب ترويضها وفرح بنجاحها الذي هو عين نجاحه، بها رضي عن نفسه، وعن طريقها كاد يبلغ السماوات العلا. ياسمين كانت تجّله وتقدره كالمريد بين يدي شيخه. إنها كانت عالما من السحر والنشوة.. هذا العالم الذي لم تطأه قدماه إلا عن طريقها هي. إنه لم يرها يوما سوى زوجة مستقبلية لمحمد المالكي بل كان هذا هو حلمه ورغبته، ولم يفكر فيها على أي صورة غير هذه الصورة، لكن هناك شعوراً غريباً ضاق به صدره عندما علم أن هذا اللقاء هو اللقاء الأخير، ربما لأنه لم يستعد له، أو ربما لأنه جاء على نحو مفاجيء وهو لا يحب المفاجآت. لقد شعر أن شيئا من روحه قد اتصل بروحها أو أن بعضا من روحها قد علق بروحه.. شعور لا يفهم قدر ما يحس وليس له تفسير سوى أننا بشر، لا نفهم مشاعرنا أحيانا بل غالبا، إن شعوره مزيج من الفرح والحزن، السعادة والكآبة، الراحة والتعب، الأمن والخوف، يسيطر عليه القلق والتوتر في يوم انتظره طويلا وكان يظن أنه سيحتفل به احتفالا لا مثيل له فإذا به مضطرب عاجز حتى عن تفسير شعوره. لقد كان في الفترة الماضية فاعلا، كان يدرس ويخطط ويتابع التنفيذ، كان لياسمين معلما ومرشدا، أما الآن فما عليه سوى أن يصبر ويتابع من بعيد، سيعود من جديد إلى حالة الركود والروتين الممل بعد أن كان لديه في كل يوم جديد.

غادر يوسف النادي تاركا سيارته كعادته عندما يكون شارد الذهن، وظل سائرا على غير هدى.

لون آخر من السعادة

تزوج الحبيبان المتفقان شكلا المختلفان مضمونا، كانت أيام الزواج الأولى أسعد أيامهما على اختلاف طباع كل منهما، فقد كان محمد هادئا عذبا يحسب كل خطوة قبل أن يخطوها، بينما كانت ياسمين مرحة منطلقة حد التهور، تفعل ما تحب في أي وقت تحب دون تفكير؛ وكالعادة يغلب المرح الهدوء، ويغلب التهور التأني، وبالتالي كانت ياسمين هي محرك كل شيء، جابت به أماكن لا يعرفها، كانت تجذبه من ذراعيه كالطفل – بل تحول معها إلى طفل بالفعل- فيفعل ما يحلو لها، لقد ترك محمد عمله شهرا كاملا وهو الذي لم يعتد العيش دونه يوما واحدا، لكن من أجل ياسمين هان كل شيء وتغير كل شيء. إنه شعور جديد عليه، وسعادة لا يعرفها، لم يتذوق طعمها قبل هذه الأيام، إنه قضى في العمل السنوات الطوال لكن هذه السعادة لم يحدث أن التقى بها يوما من قبل. وبعد انتهاء شهر العسل بدأت أيام السعادة والهناء ترتدي ثياب المسؤولية والالتزام بين الزوجين كلٌ تجاه الآخر. محمد في عمله أغلب الوقت وياسمين تمل من البقاء بالمنزل بمفردها لا تفعل شيئا حتى شؤون البيت، فقد كانت لا تجيد الطهي، ولا تعرف شيئا عن أي شيء في أمور المطبخ، ومع ذلك لم يستاء محمد من ذلك أو يتبرم، فبالمنزل مساعدة كانت تطهو له في أيام العزوبية، وما زالت تقوم بنفس المهمة حتى بعد الزواج؛ وبالتالي ياسمين ليس لديها ما تفعله، فكانت تقضي نهارها إما في مشاهدة الأفلام أو الذهاب إلى

النادي. وكان يحب دائما أن يشاركها أحداث يومه، فكم كان يفتقد هذا في الماضي القريب! فيعرض عليها مقالاته، ومقالاتٍ كتبت لانتقاده، وسبب نقد الناس له، وكيف رد وبماذا رد، كما كان يحب أن يناقشها في كل كتاب ينتهي من قراءته؛ وياسمين في مأزق كبير، فعندما كانت ترغم نفسها على ذلك سابقا كان النقاش مهما طال فهو لوقت محدود ثم يترك كل منهما الآخر وينصرف إلى بيته، أما الآن والبيت نفس البيت، ولا مفر لأحدهما من الآخر تطول ساعات النقاش حتى يقتل ياسمين الضجر لكنها تخفيه جاهدة، وفي كثير من الأوقات كانت تغفو أثناء حديثه، لكنه كان يشفق عليها، ويعتقد أنها مرهقة وتحتاج إلى الراحة. ثم بدأت التهرب شيئا فشيئا، تتعلل بأسباب عدة لتجنب هذا الحديث الأدبي. تتجنب ياسمين حديث محمد الأدبي الذي يلتف حوله الكتاب والأدباء، ويتمنى قارئو الأستاذ ومعجبوه أن يستمعوا إلى جملة واحدة منه!! وأولئك المعجبات اللاتي طالما هرب الأستاذ منهن لأنهن يطلبن وده وتريده بعضهن عريسا. غريب أمر الإنسان! يرغب في كل ما هو صعب المنال، وينفر من السهل اليسير بين يديه، و في ذلك الرجل والمرأة سواء، فكلاهما تتأصل فيه طبيعة الإنسان الذي يهوى القنص، ولا يحب الصيد السهل. يبتعد عمن يتقرب منه، ولا ترى عينه سوى من يجافيه ويهمله. قد يكون السبب أنه يريد أن يختار هو، لا أن يختاره أحد؛ أو ربما لأنه يريد أن يشعر أنه مرغوب فيه من الجميع عندما ينجح في قنص صيد استعصى عليه في البداية، أو هي طبيعة الإنسان الذي يستفزه كل ما خالفه وناقضه! قد تستطيع إيجاد أسباب عديدة، لكن يظل التفسير صعبا، فما أعقد مشاعر الإنسان! وما أصعب فهمها! وإن اجتهد في ذلك كل علماء النفس.

لم تعد ياسمين تقرأ ولا تهتم بالقراءة، وإذا أصدر محمد رواية جديدة تباطأت في قراءتها حتى أنه كان يشعر أن روايته مملة لأنها لم تجذب قارئة نهمة مثل محبوبته ياسمين. بدأ يلحظ التغييرات التي طرأت على ياسمين بمجرد أن بدأت الحياة بينهما تأخذ شكلها الجاد كحياة أي زوجين، لكنه كان يتغاضى ولم يحاول حتى أن يفكر في الأمر، فكان قد أسلم لها عقله وقلبه، و أصبحت راحته وأمانه. وما أدراك ما راحته وأمانه! لقد اعتاد الرجل -بحكم وضعه كرب للأسرة- أن يوفر الأمان لمن حوله، ولا يحظى به لنفسه؛ فإن استطاع هذا الرجل -في ظل الضغوط والمنغصات اليومية وأعباء المسؤوليات المختلفة في البيت والعمل- أن يجد راحة لرأسه القلق، وسكونا لقلبه الذي يرتجف في صمت، وأمانا يهدأ به باله في صورة امرأة ما، أسلم لها نفسه وقلبه وعقله، وأضحى كطفل بيد أمه أو كأعمى بيد دليل. ومرت الأيام وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب، فقد أصبح محمد هو من يشارك ياسمين اهتماماتها، ويستمع إلى حديثها التافه مع أصدقاء النادي. كانا إذا عزما على الخروج في سهرة أو مناسبة أفرغت ياسمين محتويات دولابها بالكامل، وترتدي كل الأثواب ليختار معها ما ترتديه، وعليه أن يبدي رأيه في كل ثوب، وإن أبدى إعجابه بالثوب الأول. وظل الوضع على ما هو عليه حتى أنجبا طفلا جميلا يشبه أباه في قسمات وجهه ولون بشرته وشعره، وكأنه صورة من صوره، كانت سعادته به لا مثيل لها، ولا توازيها أي سعادة أخرى حتى أنه شعر أن لا سعادة غير تلك السعادة التي يشعر بها عندما ينظر في عيني طفله، لقد اكتفى به عن الدنيا، وانشغل به عن كل شيء، وكان يقوم بكل شؤونه فرحا مغتبطا راضيا، وما أحب ذلك إلى ياسمين فقد كفاها مشقة تحمل مسؤولية

طفل. وكلما خرج عاد إليه بالكثير من الملابس واللعب، وإذا لم يجد ما يقتنيه له يشترِ له لعبا تسبق عمره، أوملابسا أكبر من حجمه، وعندما تسأله ياسمين يقول لها سيحتاجهم عندما يكبر. وهكذا جدد هذا الطفل حياة محمد بعدما بدأ يغمرها الروتين والسكون.

ورطة

استيقظ يوسف على جرس الهاتف، مد ذراعه إلى منضدة بجوار السرير والتقط التليفون، وهو مازال مستلقياً على سريره، وعيناه نصف مفتوحتين من شدة النعاس، لكنه سرعان ما انتفض جالسا، وعيناه اتسعت وحملقت عندما لمح اسم محمد المالكي على شاشة الهاتف، طفق قلبه ينبض، ولا يعرف ماذا يفعل أيرد أم لا! لماذا يتصل به الآن بعد طول قطيعة بينهما، أتراه قد كشف الأمر؟ لكن كيف؟ لقد أغلق هذا الملف منذ ثلاث سنوات، فما الذي يكشف شيئا كهذا بعد كل هذه المدة؟! لابد أن هناك شيئا آخر، وبقي يوسف على تلك الحال تتلاعب به الهواجس والظنون حتى انقطع الاتصال ولم يرد بعد. تنفس يوسف الصعداء ولم يكد يعتدل في جلسته حتى تكرر الاتصال مرة أخرى، وفي هذه المرة ذعر يوسف، وشعر أن الأمر ليس خيرا، لكنه استجمع شجاعته ورد هذه المرة، فحياه محمد تحية هادئة، وردها يوسف بأحسن منها، طلب منه محمد أن يقابله الليلة في أمر عاجل، ارتبك يوسف وطلب منه تأجيل الموعد إلى الغد، لكن الأستاذ أخبره أن الأمر لا يحتمل التأجيل، ولابد من لقائه الليلة، في أي موعد يناسبه وإن اضطر للسهر -وهو الذي لم يعتد السهر أبدا-. ازداد يوسف توترا، لكن ما كان له أن يعتذر عن الموعد، واتفقا على اللقاء في الثامنة مساء في مقهى اعتادا أن يذهبا إليه قديما عندما كانت العلاقات طيبة. الله وحده يعلم كيف مرت تلك الساعات على يوسف، فما استطاع الذهاب للعمل، ولا أقبل على طعام أو شراب، وظل عقله فريسة للوساوس

والتنبؤات التي كانت كلها سيئة، فكادت تفقده صوابه لدرجة أنه فكر أن يتصل بياسمين ليسألها إذا كان شيئا قد طرأ، لكنه تراجع خوفا من وجود محمد بجانبها فيزداد الأمر سوءا. ركب يوسف سيارته حوالي الساعة السابعة مساء، ولم يبرح التفكير رأسه؛ كان يسأل نفسه: إذا اتضح أنه عرف كل شيء ماذا أقول له؟ الأهم ماذا هو فاعلٌ بها هي؟ فأنا لست ذا أهمية الآن، هي وابنها هما الأهم، هما ما فعلت كل هذا من أجلهما. وصل يوسف أخيرا، ودقت الساعة الثامنة، وكانت أطراف يوسف قد تجمدت، فقد هرب الدم من عروقه. حضر الأستاذ في الموعد، وكانت على وجهه ابتسامته الوديعة الجميلة مما جعل يوسف يستنشق بعض الهواء؛ استقبل يوسف استقبالا حارا، ثم جلس ودار بينهما حديثٌ ممتعٌ من أحاديثهما السابقة، ومازال يوسف يعاني من بعض التوتر وإن كان قد خف كثيرا؛ ثم سأله الأستاذ:

- لابد أنك تريد أن تعرف لماذا طلبت لقاءك؟

ارتعدت أوصال يوسف ثم قال:

- بالتأكيد

- لقد أردت أن أعتذر لك عما بدر مني سابقا في حقك

أطرق يوسف لحظة محاولا استيعاب ما سمعه ثم قال:

- أهذا هو السبب؟

- نعم

- ولكنك ذكرت لي أنه موضوع عاجل لا يؤجل للغد

- كنت أريد أن أتواصل معك منذ فترة، وكانت تشغلني أمور الحياة، حتى قررت ألا أنام ليلتي هذه إلا وقد صالحتك

- يا أستاذ! إن هذا موضوع قديم، وقد مر عليه وقت طويل

- ولكنه تسبب في قطيعة بيننا

- أعترف أنني أخطأت، ولكني كنت حسن النية والله العظيم
- لم أحضر لمناقشة ما حدث، إنما جئت لأصلح ما قد فسد بيننا
- من جانبي أنا - يعلم الله – ما زلت أحبك وأوقرك وأقر بفضلك علي
- أعرف ذلك يا يوسف، فقد بلغني من بعض المقربين أنك في الفترة الأخيرة تتحرى أخباري وتسأل عن كل ما يخصني

بدا الارتباك على وجه يوسف ثم طفق يقول:

- مازلت أعتبرك صديقا عزيزا، حتى في أيام الخصام
- إذن لم يوغر صدرك شيء مما حدث
- كلا
- وأنا أيضا نسيت كل شيء، ولم يعد في قلبي أي ضغينة لك أو لغيرك

وأخذا يتبادلان أطراف الحديث، وحرص يوسف كل الحرص ألا يقترب في حديثه من سيرة زوجته أو ابنه، ولكن الأستاذ قد بادر بذكرهما قائلا:

- لابد أنك علمت أني قد تزوجت وأنجبت
- نعم.. علمت (قالها يوسف بتوتر شديد)
- بالتأكيد فرحت فرحا شديدا، فقد كان كل همك أن تزوجني

خفق قلب يوسف واحمر وجهه:

- طبعا يا أستاذ.. فرحت جدا..
- لقد أتم ابني عامين كاملين بالأمس
- حفظه الله لك يا أستاذ (قالها يوسف وهو يتناول كوبا من الشاي)
- أشكرك.. لابد أن تزورني في منزلي يوما كي تراه، وتتعرف على زوجتي أيضا

ما أتم محمد كلمته حتى اهتزت يد يوسف وانسكب بعض الشاي منها

- خيرا.. لا تنزعج.. هل أصابك شيئا
- كلا..

- حمدا لله ..سأغادر أنا الآن لأني مرتبط بموعد آخر وسوف أتواصل معك قريبا لنرتب للزيارة
- إن شاء الله
- مع السلامة

غادر محمد وترك يوسف ورأسه يدور، كيف يزوره في بيته؟ كيف يتعرف على زوجته؟! كيف يلتقي بياسمين في وجوده؟! كيف سينظر إليها وكيف ستنظر إليه؟! إنه أمر مفزع. لا ينبغي أن يحدث هذا.. لا ينبغي أن يحدث

الملائكة لا يسكنون الأرض

أشرق صباح اليوم التالي وياسمين ساهرة منذ البارحة كعادتها كل ليلة بعد أن يغفو طفلها الوديع، تنبهت إلى رنين المنبه يشير إلى موعد ذهاب محمد إلى الجريدة. المنبه يرن ومحمد لم يصحو بعد! هذه من عجائب الدنيا (حدثت نفسها في دهشة) لا بد أنه متعب اليوم فهو يرهق نفسه كثيراً في العمل، سأوقظه ليعتذر تليفونياً عن الذهاب للجريدة اليوم، فهو يحتاج إلى قسط من الراحة. اتجهت إلى الغرفة وكلها إصرار على ألا يذهب زوجها اليوم للعمل مهما كلفها الأمر. فتحت باب الغرفة وجدته مستغرقاً في النوم لا يتحرك، ولا يشعر بصوت الجرس، ياله من مسكين، إنها أول مرة تراه هكذا. بدأت توقظه بصوت خفيض في نبرة من الرأفة والعطف. محمد.. محمد.. استيقظ يا حبيبي.. الساعة السادسة والنصف.. يا الله إنه غارقٌ في نومه.. بدأت تحركه بيديها، وفجأة شحب لونها وارتعدت أوصالها، فليس هذا بنوم، ليس بنوم!! إذن فماذا؟!! "محمد" صرخت بأعلى صوتها فلم تجد مجيباً.. وظلت تقلبه ذات اليمين وذات الشمال ولكن دون جدوى فقد مات محمد.. صرخت فاستيقظ الطفل الصغير مرتعداً وعلا صراخه، جرت نحوه واحتضنته وهي تبكي بصوت مبحوح وتقول: مات أبوك.. مات أبوك يا مسكين.. ظلت تبكي وتصرخ حتى خارت قواها، وارتمت على جسد زوجها الهامد، فلم يمسح دمعها أو يحتضنها كما كان يفعل دائما، فقد صار غير قادر على الفعل، بل غاب عنها وعن الدنيا وما فيها.

سرى خبر وفاة محمد المالكي كالنار في الهشيم وجاء الناس من كل فجٍّ عميق ليشهدوا دفنه ويشيعوه إلى مثواه الأخير. كان الجميع في حالة ذهول، فهذا رآه أمس، وذاك تحدث إليه وهذا قابله مصادفة، وآخر قابله بموعد والكل أجمع على أنه كان في أحسن حال شاهدوه عليها، فكيف حدث هذا؟!! أهو حادث سير؟ تردد هذا السؤال من أغلب الحاضرين، وتتولى الرد ياسمين مرة وأمها مرة أخرى بالعبارة نفسها: "نام ولم يصحو" وفي كل مرة تجيبان فيها يزداد بكاؤهما وجزعهما، فالمصاب فادح، والفقيد لا يُعوَّض، والجرح الذي خلَّفه غائرٌ؛ وفي جنازة الرجل النبيل وبين جموع الحاضرين تجد رجلاً مشدوهاً، يسير بين الناس كالتائه، كأنه لا يعرف في جنازة من يسير، أو بالأحرى لا يصدق في جنازة من يسير، يتجمد الدمع في عينيه، ويخطو خطوات رجل عجوز وهو في ريعان الشباب. إنه يوسف.. نعم هو يوسف الذي اختلطت بداخله الآن كل المشاعر الحزينة التي عرفتها الإنسانية. كانت لحظة الدفن مُروعة، فقد علت الصيحات والصرخات، وجلس يوسف على الأرض يجهش بالبكاء، كان مشهداً يدمي القلوب، فقد شعر الجميع بأنها جنازة الرحمة والمودة والنبل والشهامة والمروءة فكلها كانت صفات الفقيد. شعر يوسف بيدٍ تربت على كتفه، وتشده لينهض، التفت إلى صاحب اليد فإذا به صديق لمحمد قد تعرف عليه في جلسات السمر التي كان يحضرها معه، اشتد بكاء يوسف وقال:

- أرأيت ما حدث؟!

- نعم.. رحمه الله (أجاب في حزن) يقولون أن زوجته دخلت إليه لتوقظه في الصباح فوجدت روحه قد فاضت

- لقد طلبني بالأمس للقائه، بعدما دامت بيننا قطيعة لأكثر من ثلاث سنوات، استقبلني استقبالا حارا، واسترضاني وطلب مني أن نتزاور

وتعود العلاقات كما كانت (قالها يوسف بتأثر والدموع تجري على وجهه)

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كأنه قد شعر بانتهاء أجله

- نعم.. إنني طلبت تأجيل الموعد لكنه أصر على لقائي بالأمس، كأنما كان يعلم أن ليس لأمسه غد! (يبكي بكاءً شديداً)

- هوِّن على نفسك يا يوسف فهذا قضاء الله. لقد أراد له الله ميتة هينة لينة تليق برجل مثله، هذا الرجل الذي كان ييسَّر على الناس كل شيء فيسَّر الله له رحلته إلى الآخرة.

- ونعم بالله

- هل تعرف زوجته؟

- نعم

- وكيف حالها؟

- لم أقوَ على التحدث إليها

- ألم تعزها؟!

- كلا.. نظرتُ في وجهها فرأيت عينيها المتورمتين وجسدها المرتعش من كثرة البكاء، كانت تصرخ صراخاً عالياً، فأشفقت عليها وعلى نفسي من قسوة اللقاء، وتنحيت عنها جانباً.

- لابد أن تسأل عنها يا يوسف فهذا حقها وحق ابنه علينا جميعا

قال يوسف بمرارة:

- آه ابنه! ما أشقاني بابنه!

سيناريو القدر

علم يحيى بخبر وفاة الأستاذ محمد المالكي الذي كان يعرف عنه كل شيء – من خلال يوسف - رغم أنه لم يقابله يوما، لذلك تأثر بموته تأثرا شديدا، وزاد من حزنه ذلك الطفل الصغير الذي أضحى اليوم يتيما، إن ليحيى أطفالا، فهو يعرف قيمة الأطفال، ويدرك معنى أن يكون الطفل بلا أب. توجه يحيى لتعزية صديقه يوسف ومواساته، فمصابه مضاعف، فهل يحزن لفقدان صديق أحبه وكان صاحب الفضل عليه، أم يحزن على هذا الطفل المسكين الذي بذل يوسف الكثير لكي يحظى بتربية ورعاية المغفور له محمد المالكي. التقيا الصديقان بعناق حار، أفضى فيه يوسف ما بداخله من أسى دون أن ينطق بحرف، ثم نظر إليه قائلا:

- أرأيت.. مات محمد المالكي، هذا الرجل الخلوق النبيل، وبقي على هذه الدنيا زاهي علي وأمثاله!

- استغفر الله يا يوسف، أعرف أن المصاب أليم، والفقيد لا يعوض، لكنها إرادة الله يا صاحبي

أطرق برأسه ولم يجب

- كيف حال زوجته وابنه؟

- حزينة ياسمين، عيناها قد تقرحتا من البكاء، والطفل لا يعي ولا يدرك، لكنك إذا نظرت في وجهه وجدت فيه أباه حيا لم يمت.

- أيشبهه إلى هذا الحد؟!

- وأكثر

- لعلك قلق بشأنه

نظر يوسف إليه نظرة حزينة ولم يتكلم
- سبحان الله! لقد كنت تقول أن كل شيء محسوب ومدروس ولا مجال لثغرة ينفذ القدر من خلالها، أدركت الآن أن القدر لا يحتاج إلى ثغرة كي ينفذ منها، وإنما هو حاضر دائما في زفرات الأنفاس، ودقات القلوب، ونبض العروق، هو ذاك الذي حبس آخر أنفاس هذا الرجل الطيب وهو الذي سيصرف الأمر لابنه كيفما يشاء
- أشامتٌ أنت يا يحيى؟!
- معاذ الله؛ وإنما أنا أتعجب من تصاريف القدر، فقد افترضتُ الكثير من الأحداث التي تحول بينك وبين ما كنت تسعى إليه في شأن محمد المالكي وياسمين، فقد قلت أنه قد لا يحبها، وأحبها؛ وقلت أنه قد لا يتزوجها، وتزوجها؛ وقلت قد لا ينجبان فأنجبا؛ وما حدث هو السيناريو الوحيد الذي لم نتوقعه بعد.
- ولماذا يعاندني القدر؟
- إن القدر لا يعاند أحدا، ولا يدخل معارك مع أحد. قد يتوهم الإنسان أحيانا أنه يستطيع أن يقف في وجه القدر، لكن القدر قطار لا يتوقف إلا في محطته المقدر له الوقوف عندها، لا يبالي بمن يعترض طريقه أثناء سيره؛ ولذلك جهول هو من يتخيل أن هناك معركة تدور بينه وبين القدر، لأن أي معركة لابد لها من منتصر ومهزوم، والقدر لا يُهزم أبدا.
- لكني لم أمت كي أهزم، وهذا الطفل سيربى كما أعددت له، مستحيل أن يذهب جهدي وعنائي سدى
- ماذا تريد أن تفعل؟
- أنا لن أفعل شيئا، فقد فعلت الكثير، والآن وقت جني الثمار
- لا أفهم شيئا
تقدم يوسف إليه منفعلا وأمسك بذراعيه قائلا بحماس:

- ياسمين.. ياسمين يا يحيى، ياسمين التي علمتها ودربتها وثقفتها، والتي عاشت مع محمد المالكي ثلاث سنوات، ولابد أنها اكتسبت بعض صفاته و طباعه، وأثرت فيها ثقافته وعقليته، وقد قمت أنا بوضع حجر الأساس الذي يجعلها تستعد لاستقبال كل هذا؛ لقد تخرجت ياسمين من مدرستي مثقفة واعية، ولابد أن ما ستفعله مع ابنها هو نفسه ما كان سيفعله زوجها إذا كان قد قدر له أن يعيش.

- أتمنى أن يحدث هذا، وإذا تم ما قلت بالفعل، سيكون الفضل فيه لك وحدك بعد الله.

أحدثت كلمات يحيى في نفسه نوعا من الفخر والاعتزاز بالنفس، خاصة هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها من صديقه كلمات إيجابية عن هذا الموضوع، بل زاد أنه أثنى عليه، وهذا ما كان جديرا أن يجعله يحلق في السماء فرحا لو كان في ظرف غير هذا وهو في غمرة حزنه على الأستاذ؛ لكن الأمر كله يتوقف عليها هي.. هي وحدها.. ياسمين الذي راهن عليها سابقا وكسب الرهان، وسيراهن عليها حاليا وواثق أنه سيكسب أيضا.

بداية النهاية

مرت ستة أشهر على رحيل محمد المالكي، ورأى يوسف أن الوقت قد حان لزيارة ياسمين والسؤال عنها وعن طفلها، وأيضا ليتحدث إليها في أمر الطفل، ورعايته وتربيته، وليعرف منها ما تنوي عليه في هذا الشأن. فإذا رآها تسلك مسلكا حسنا تركها وهو آمن مطمئن، وإذا احتاج الأمر إلى تقويم قوَّمها، فهي تجلّه وتوقره، وتعتبره معلما لها وصاحب فضل، بل هو كذلك بالفعل. لقد تركها ستة أشهر لأنه يعلم مدى حزنها على فقيدها، وأن الأذن وقت المصاب لا تسمع، والعين لا تبصر، والعقل لا يدرك. ومصابها كان كفيلا أن يذهب بالعقول. اتجه يوسف إلى حي المعادي حيث العمارة التي تقطن فيها ياسمين، فقد علم أنها قد عادت إلى العيش في شقة والدتها، كانت تسكن في الدور العاشر. تنفس الصعداء عندما وجد مصعدا كهربائيا، استدعاه وركب حتى وجد نفسه أمام شقتها، رن جرس الباب ففتحت له سيدة عجوز أنيقة فبادر قائلا:

- حضرتك والدة الأستاذة ياسمين

- نعم.. يابني.. من أنت؟

- أنا صديق لها ولزوجها المرحوم محمد المالكي

- نعم.. تذكرتك.. لقد رأيتك في العزاء.. مرحبا بك يا أستاذ.. تفضل

- اسمي يوسف..

- أهلا وسهلا بك

- أعتذر عن الحضور دون موعد سابق، فأنا حاولت كثيرا الاتصال بياسمين لأحدد موعدا ولم أتلق أي رد، فازداد قلقي، لذلك جئت غير مبالٍ بأي شيء

- لا عليك يابني، مادمت صديقا لمحمد وياسمين فالبيت بيتك تأتي أي وقت تريده
تلفت حوله ثم قال:
- أين هي إذن؟
- ليست هنا.. إنها بالنادي
- النادي! لو علمت هذا لذهبت إليها هناك
- أتعرف مكان النادي؟
ارتبك بعض الشيء، فهو يعلم أن ياسمين لم تخبر والدتها بما كان بينها وبينه ثم قال:
- نعم.. فأنا كنت أراها هناك بين الحين والآخر (صمت لحظة ثم أضاف): ومحمداً أيضا
- رحمه الله.. كم تألمنا لفراقه، يعلم الله أنه كان خير الناس، ونسأل الله أن يعوضنا خيرا في ابنه
- كنت أتمنى رؤيته اليوم
- إنه نائم الآن، إذا استيقظ قبل أن ترحل ستراه
- حسبته مع والدته
- والدته! أين هي والدته؟!!
- معذرة يا سيدتي فأنا لا أفهم
- ألست صديقا لياسمين؟
- بلى..
- إذن تعرفها جيدا، وتعرف أنها لا تحب تحمل أي مسؤولية، فهي منذ وفاة زوجها وهي تلقي على عاتقي مهمة تربية ابنها، وتهتم هي بشؤونها
- وما هي شؤونها هذه؟

- الخروج مع أصدقائها القدامى، والذهاب إلى النادي، والكوافير والمحلات، وما شابه؛ فقد عادت لحياة ما قبل الزواج
كان يوسف يسمع هذا الكلام وصدره يعلو ويهبط وهو يكتم في صدره الانفعال
- لكن هل ستستطيعين تحمل مشقة تربية طفل يا أماه؟
- ليس في يدي خيار، هل سأهمله أنا أيضا؟ كلا.. بالطبع؛ سأربيه كما ربيت أمه، فأبو ياسمين – رحمه الله – كان لا يحب تحمل أي مسؤولية أيضا، وياسمين ورثت عنه هذا
- أفهم من ذلك أن ياسمين التي أعرفها حضرتك من قمت بتربيتها وحدك؟
- نعم يا بني
- وسوف تقومين بتربية ابنها بنفس الطريقة؟
- بالطبع
شعر يوسف بدوار خفيف، وكأن الدم يهرب من عروقه شيئا فشيئا، وقد عجز لسانه عن النطق. حاول أن يتمالك نفسه لكي يقف مستعدا للرحيل دون التمهيد لذلك
- لماذا وقفت هكذا يا بني؟
- سأرحل
- كيف هذا؟ إنك لم تشرب شيئا بعد!
- شكرا.. لا أريد شيئا
- انتظر إذن حتى تحضر ياسمين
- سأحضر إليها مرة أخرى
كان الكلام يرهق يوسف وكأن كل حرف يخرج من فمه يجرح حنجرته، توجه إلى الباب والسيدة تصحبه بكلمات الترحيب، وتدعوه إلى تكرار

الزيارة، وعندما فتح الباب وجد خلفه ياسمين قد عادت. وقع نظره عليها فوجدها قد خلعت عنها الرداء الأسود، وارتدت ألوانا صارخة مبهجة، يبدو أن حدادها على زوجها قد انتهى مبكرا، أين ذهبت تلك الدموع التي شاهدها في الجنازة؟! لقد توهم أن دموعها لن تجف أبدا وأن حزنها عليه لن ينتهي، فمثل هذا الرجل جدير بأكثر من ذلك؛ إن ذاكرة العقل ضعيفة، أما ذاكرة القلب فقوية جدا، ومادامت ياسمين قد نسيت محمدا فهو لا شك كان يسكن عقلها، لكنه لم يسكن قلبها مطلقا. التقت عيناهما، لكن ياسمين قد هربت بعينيها بعيدا عنه، وبدا على وجهها بعض الخجل، كان يتمنى أن يتركها ويمضي دون كلمات، لكن وجود والدتها أجبره على الترحيب المصطنع بها. دعته السيدة إلى الدخول ثانية للجلوس مع ياسمين، لكنه تعلل بموعد هام، وقال:

- جئت لأطمأن عليكم، وها قد اطمأننت (قالها بمرارة مستترة)

واتجه غائب الوعي إلى السلم تاركا خلفه المصعد، فقد كان رأسه مشغولا بحديثه إلى نفسه فطفق يردد بنغمات متقطعة:

- الطفل ستربيه جدته.. كما ربت والدته.. وبنفس الطريقة (يقولها بسخرية كالمجنون) فلابد أن نستعد لاستقبال شاب تافه سطحي كأمه، لا يشغله من الحياة سوى اللهو؛ وأمه قد نسيت كل ما تعلمته مني أو من أبيه، بل نسيتني أنا وأباه، وعادت إلى سيرتها الأولى. لقد كنت مغفلا، إن الطبع غالب التطبع لا محالة. كيف لبضع سنوات عرفتني فيها أو عرفت محمدا تنسيها تلك السنوات الطوال التي تربت ونشأت خلالهم؟! كان الرجل مضربا عن الزواج، وجئت أنا من المجهول لأدبر له زواجا كان نتيجته هذا الطفل المسكين الذي سيربى بطريقة أنا وحدي المسؤول عنها، فأنا من اخترت له أمه. أردت أن أسعى لوجود طفل سوي ذي نشأة سوية، فإذا بي أضيف إلى الأطفال الأشقياء -بسوء

التربية- طفلا آخر. آه ما أشقاني! لقد تسببت أنا في كل هذا. ما الذي اقترفته من ذنب لأجني هذه النهاية التعيسة؟! لقد فعلت ما فعلت ونيتي طيبة وهدفي نبيل، لكن القدر هو من شاء ذلك.. القدر؟! (قالها وكأنما يلقي على نفسه سؤالا) نعم.. القدر الذي عاندته فأراد أن يلقنني درسا فصفعني صفعة أحدثت في أذني صفيرا مدويا.

كان يهبط السلم في حالة من اللاوعي حتى استوقفته لافتة معلقة على باب إحدى شقق العمارة مكتوب عليها:

{ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}

تجمد في مكانه؛ ثم تهاوى على إحدى درجات السلم وكأنه يحط عنه تعب سنين؛ وظلت عيناه مصوبة نحو الآية الكريمة وقد انفصل عن كل ما حوله.

المحتويات

كشف الأسماء ٥
طاووس الأدب ١٣
زعيم المضربين ١٨
جرح قديم ٢٥
ملاك بين البشر ٤٦
سُبات عميق ٥١
لحظة عناد ٥٨
غلطة الشاطر ٦٢
فكرة مجنونة ٦٨
اتفاق ٧٤
الجميلة تقرأ ٨١
لقاء صامت ٨٥
لحظة الهجوم ٩٠

شهادة نجاح ٩٥
شيطان من السماء ١٠٢
مجنون ليلى ١٠٦
عطر الياسمين ١١١
سر القلب ١١٥
نهاية البداية ١٢٠
الفراق ١٢٦
لون آخر من السعادة ١٣٢
ورطة ١٣٦
الملائكة لا يسكنون الأرض ١٤٠
سيناريو القدر ١٤٣
بداية النهاية ١٤٦